حياتي وأيامي العصيبة

جيمس ثيربر

ترجمة بكر عبّاس

8

حياتي وأيامي العصيبة

نشر بالاشتراك مع

مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر

بيروت — نيويورك

١٩٦٥

حياتي وأيامي العصيبة

تأليف : جيمس ثيربر
ترجمة : بكر عبّاس

المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر - بيروت

المسهمون في هذا الكتاب

جيمس جروفر ثيربر (المؤلف)

ولد المؤلف عام ١٨٩٤ في مدينة كولومبس من ولاية اوهايو، وتلقى علومه في جامعة الولاية ونال عدداً من درجات الشرف .

وقد شغل ثيربر وظائف متعددة وعمل مخبراً صحفيا لاكثر من مجلة وصحيفة الى ان استقر به المقام عضواً في هيئة تحرير مجلة **نيويوركر** New Yorker.

وللمؤلف شهرة واسعة ككاتب هزلي ورسام للكاريكاتور. وقد ظهرت آثاره في مجلة **نيويوركر** وفي مجلات اخرى . ومن مؤلفاته مسرحية : The Male Animal ، وكتب عديدة اخرى

منها : The Seal In The Bedroom, Fables For Our Time, The Beast In Me And Other Animals, The Thirteen Clocks, Further Fables For Our Time, The Wonderful O, The Years With Ross.

وقد توفي عام ١٩٦٢ .

بكر عباس (المترجم)

من مواليد فلسطين . شغل مناصب عديدة في سلك التعليم ، وهو يعمل الآن في قسم الترجمة في شركة الزيت العربية الامريكية (ارامكو) .
وقد ترجم وراجع عدداً من الكتب .

مقدمة

ان كتاب جيمس ثيربر الذي توشك أن تقرأه او تعيد قراءته نشر اول مرة عام ١٩٣٣ — وهو تاريخ يبدو الآن كأنه مرّ منذ دهور اذا ما فكرنا لحظة في جميع الكتّاب الذين ظهروا منذ ذلك الحين وغابوا وطويت معهم كتبهم التي ظننا أنها ستصمد للزمن . أما كتاب ثيربر « حياتي وأيامي العصيبة » فلم يتسرب اليه الذبول بل انه ما زال حياً مضحكاً كما كان منذ ظهر الى حيز الوجود .

ان القول بأن كتاباً يتحدى الزمن ويزداد به قوة هو ، بطبيعة الحال ، وجه آخر للقول بأنه أصبح في عداد الآثار الكلاسيكية .

بعد ان أصبح ثيربر كاتباً مرموقاً —وكان قبل ذلك رساماً كاريكاتورياً ناجحاً — وجـد نفسه هدفاً لجميع أشكال النقـد والتفسير ، ولعل ذلك كان يثير في نفسه استمتاعاً خفياً . فهو كاتب هزلي ساخر (هاتان الصفتان ليستا بالضرورة شيئـاً واحداً) . وهو بطبعه يفيض بالمرارة ، ولكنـه يلوذ بالهزل هرباً من السوداوية. وهو مهيىء لأن يكون نفوراً من الناس، ولكن مرحه الفطري يجعله يبدو غير لائق لهذا الدور . وهو عاطفي نحو الحيوان (وبخاصة الكلاب) ولكنه واقعي تجاه الكبار من الناس وان يكن متسمحاً صبوراً في أغلب الأحيان.

لعل القارىء يظن أن هذه مجموعـة من الاحكام الغريبـة المتناقضة . وقـد تبدو كذلك لأول وهلة . ولكن اذا أتيح للمرء ان يطّلع على نتاجه الوفير أدرك أن كل واحد من هذه الاحكام فيه قدر من الحقيقة عنه. ومعظم هذه الاحكام كانت وما زالت تطلق على مارك توين، ولعلها كانت في ذهن ت.س. اليوت عندما درس ثيربر كاتباً وفناناً، فقال انه يرى في نتاجه « ضرباً من الهزل هو في حـد ذاته طريقة أخرى للجـد في القول » . ان ابن هنيبال* (احدى مدن ميسوري) وابن كولومبس (عاصمة اوهايو) يشتركان في كثير من الصفات .

---

* مارك توين .

ان الكاتب لا يتسنى له ان يكون بهذا التنوع (ونحن هنا يهمنا في ثيربر كونه كاتباً) الا اذا كان اديباً فناناً لبقاً ومتيناً في آن واحد، وهذا ما كانه ثيربر منذ البداية وما زال كما يبدو من « حياتي وأيامي العصيبة » التي ظهرت بعض قطعها في صحيفة نيويوركر[1] في العقد الثالث من القرن .

وككل كاتب مبدع زاده مرور الزمن عمقاً ولباقة . ان اللماحية المتقدة التي نجدها في « أحلام وولتر ميتي »[2] التي كتبها فيما بعد تجعل القارىء يقول لنفسه : « قد أكون أنا ذلك الشخص الذي أقرأ عنه » . فمن منا لم ينسق وراء بطولات أحلام النهار؟ ولا يتسنى الا للصانع الموهوب أن يبلغ بتلك القصة الذروة التي بلغها ثيربر . لقد دخل اسم « ميتي » في قاموس لغتنا. لقد اعتمد كثير من الكتاب في قصصهم محنته المؤلمة والوسائل الانسانية التي حاول بها الهرب منها ، معترفين بفضل ثيربر عليهم ؛ وكثير غيرهم انتحلوها او سرقوا منها دونما خجل. ولكن كم من القصص القصيرة الهزيلة سوف تهمل وتندثر لتبقى قصة « احلام وولتر ميتي » .

وكانت ثمة ايضاً محاولات في القصة الخالصة مثل «المستشارة

---

١ – The New Yorker

٢ – The Secret Life of Walter Mitty

المحنكـة »[1] التي يستطيع المرء ان يلمح فيها أحـد المعجبين
بهنري جيمس (يقال ان ثيربر كان أحد المعجبين به) يمتع نفسه
بنسج قصة محكمة الحبكة . وهناك أيضاً خرافاته بسحرهـا
الجادّ المتزن دون أي محاولة لتمييعها، فقصته «مغامرات بلاك
وليتلجاك »[2] يجد فيها الطفل متعة ويجد فيها الكبير درساً في
معنى الحرية ؛ ولعل كلاً منهما يجد فيها بالاضافة الى نصيبـه
بعض ما يجده الآخر من المتعة .

ان الفراهة الفنية في الكاتب ليست كافية بحد ذاتها ، وقد
تكون في بعض الاحيان عاملاً معطلاً . ولكن عندما ينتقـل
ثيربر من نقطة الى اخرى في ميدانه الفسيح فانه لا يفقد شيئاً
من رصانته او اسلوبه . وهو في الحقيقة يبـدو وكأنه ينتعش
بالانتقـال من السرد الوصفي الى الهزل او من قطعـة كتبت
بحرارة عن كلب الى قطعة جاهمة يخفي هزلهـا فزعاً مريعاً .
ففي مجموعة « عالمي — أهلاً به »[3] راح يحلم مع ميتي ، ثم غاب
في تشاعيب السياسة الفرنسية، ثم أخذ يبحث عن قاتل دنكن
الحقيقي في «ماكبث» ، ولم يلبث ان انصرف الى كلب فرنسي

---

١ — The Catbird Seat

٢ — The Wonderful O

٣ — My World - And Welcome To It

يحبه . وقد ظهرت تلك المجموعة عام ١٩٤٢ ، ولكن حتى في تلك المرحلة المتأخرة من حياته الأدبية كان كثير من النقاد يرون فيه كاتباً هزلياً لا غير . ولعلهم لم يقرأوا « أخطار في أيار »[١] وهي قصة مرعبة لا تكاد تذكر نشرت عام ١٩٢٨ في مجلة **نيويوركر** ، او قصة الرجل الوحيد المعذب « الانسان سائح »[٢] التي ظهرت عام ١٩٣٥ في مجموعة « الكهل في الأرجوحة الطائرة »[٣].

لعل ثيربر نفسه غذى هذه الفكرة عن نفسه حيناً — أعني أنه كاتب ينبغي ألا يحمل محمل الجد — كما فعل رنغ لاردنر الذي كان يحط من قدر نفسه ، والذي نجد صلة وثيقة بين سخريته الواضحة والجانب المظلم في ثيربر . ان كتّاب العقد الثالث كانوا يحرصون على التأدب الشكلي برغم وقفهم أنفسهم لفنهم ، وثيربر تلميذ تلك الحقبة .

غير أن كل الأدلة تشير الى ان نضوجه كان يتناسب طردياً مع تزايد الجد في نظرته الى نفسه من حيث كونه كاتباً ، اي مع تزايد ادراكه لكونه ليس كاتباً هزلياً بالمفهوم الامريكي

---

١ — Menaces in May

٢ — One Is A Wanderer

٣ — The Middle Aged Man on the Flying Trapeze

للمبالغة الساخرة ، بل فيه كل ميزات الكاتب الواقعي الذي يصور الحياة تصويراً هادئاً واضحاً كما رآها . ان المؤرخ الذي يريد ان يعرف عام ٢٠٠٠ بعد الميلاد ما كانت عليه الحياة الجامعية والصحفية في مدينة من مدن اوهايو اثناء العقدين الثاني والثالث من هذا القرن لا يستطيع اغفال «ألبوم ثيربر»[١].

ومهما تغيرت الزاوية التي يعالج منها موضوعه والنغمة التي يختارها للتعبير عما يريد التعبير عنه، فان هناك عوامل مشتركة نجدها في نتاجه كله . فهو يمقت القسوة ، وعطفه على الرجل الذي خانه الحظ لا يقل عن احتقاره للمغرور الاحمق . وهو يرى ان لدى الأطفال من الحكمة اكثر مما بقي منها لدى الكبار ، لأنهم اقرب الى عالم الطبيعة. وهو يرى حياة الأسرة عند الكلاب أفضل منها عند الآدميين، كما أن الكلاب تفوقهم على وجه العموم شجاعة واخلاصاً .

ثم هناك أسلوبه الذي لا يمكن ان يكون لغيره ، وهو أداة دقيقة طيّعة ، وقد يكون اذا اقتضى المقام عفوياً أميل الى الثرثرة ، ثم تجده جزلاً لا مكان فيه للزيادة او النقصان كحبل شد الى منتهاه . وفي « ألبوم ثيربر » يروي بعض ما

١ - The Thurber Album

فعله أستاذ للانجليزية في جامعة ولاية اوهايو – وهو شخص يميل الى الكلاسيكية – لتطوير عقل ثيربر الشاب . وكانت النتيجة ان تفتح وازداد حدة ، ونحن نرى أثر ذلك اليوم في أسلوبه الذي لا تجد فيه حشواً ولا تأثيراً تخلقه الصدفة .

وليس استشفاف الماضي ، في رأيي ، هو ما يجعلنا نرى مبلغ النضوج الفني الذي استبقته مجموعة « حياتي وأيامي العصيبة » ، او العشرين سنة الاولى من حياة جيمس جروفر ثيربر الذي ولد في كولومبس في ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٤ . وهي كما سيرى القارىء مزيج عجيب من المهزلة والكوميديا، من ذكريات شجية أحياناً ساخرة أحياناً اخرى. وعندما بدأ يكتب هذه القطع كان قد عمل كاتباً للشيفرة في وزارة الخارجية في واشنطن وباريس، ومراسلاً او محرراً لعدد من الصحف. فهو، كما كان يقال ، تنقل ورأى. غير انه عندما يعود بذاكرته الى نقطة البداية نسمع صوتاً من وسط الغرب، كما بقيت لهجته لهجة وسط الغرب حتى اليوم . وهو ليس بالمغترب الذي يسخر من قريته ولا بالخريج العاطفي يعود الى « أيام الدراسة » في الجامعة .

وكما ألمحنا فان ثيربر انصرف بعد ذلك الى عمل أشد صعوبة وتعقيداً . غير ان مذكراته هذه عن أيام صباه وشبابه كانت

أبدع نتاج في هذا الباب وأوفر حظاً من النجاح . وقد قـال مرة : « ان المرح هو فوضى عاطفية يتذكرها الانسان في حالة الهدوء » . وهو في هذا يعيد ما قاله وردسورث عن الشعر . أما مدى ما في هذه المجموعة من متعـة في الفوضى والهام في التذكر فذلك تنبئك به « ليلة سقط السرير » و « يوم انهـار السد» و «الليلة التي دخل فيها الشبح» وغيرها من القطع العشر التي تجدها في هذه المجموعة . والعنصر الهزلي في بعض هـذه القطـع أشد وضوحاً ممـا عرف عن ثيربر حتى ذلك الحين . ويلاحظ القـارىء في « يوم انهار السد » ذلك البنـاء الدقيق الذي امتاز به ثيربر فيما بعد : فالسدّ لم ينهر وهروب أهـل المدينة الى أرض الأمان ليس له ما يبرره. وهكذا فان الناس في عالم ثيربر – حتى في ذلك الحين – كانوا يتصرفون بصورة أشد حمقاً من كلب يحترم نفسه .

لا شك أن كل شخص سيجد في هذه القطع قطعاً يعجب بها ويفضلها على غيرها . ومهما تكن القطع المفضلة عندي فلا بد أن تكون بينها «الكلب الذي كان يعض الناس» . اي امرأة غير السيـدة ثيربر تثني على كلب عطـل بعض موارد الأسرة بعضّه زملاء زوجها الذين يعتمد عليهم ؟ فالكلب في رأيهـا كان على حق لأنه درس شخصية الرجل ووجد أنه لا يعتمـد

عليه . ان الأدوات الثانوية في كولومبس ، كما يصورها ثيربر ، لها دائماً انغام قوية خاصة بها . فالفئران في بيته تسلك سلوكاً غريباً ، والجد — وهو ممن خاضوا غمار الحرب الأهلية — يصبح صعباً عندما ينصرف ذهنه عن الماضي .

يقول المؤلف في احدى القطع : « كانت تلك الحادثة من اللحظات القليلة التي أود ، لو استطيع ، ان اعيشها مرة ثانية ، ولكن لا اخالني استطيع في هــذا الوقت » . وهو وان كان يتحدث عن حادثة معينة الا ان ما يتبادر الى الذهن هو انه كان يقصد الحقبة بأكملها . في ذلك الحين لم يكن المرء يعدم حدثاً جديداً . ولم تكن السوداوية التي انتابته عام ١٩٣٣ عندمــا كتب مقدمة هذه المجموعة قد خيمت على الجيل والعالم بأسره .

تأخذ الدهشة بعض المتشككين عندما يسمعون احد انصار ثيربر يشير الى هذه المجموعة بأن كل ما فيها صدق أو قريب من الصدق ، وقــد يتساءلون في استغراب : « أتسمون هــذه سيرة ذاتية او مذكرات ؟ من الذي يستطيع تذكر كل هــذه الأشياء التي حدثت قبل عشرين عاماً او اكثر وأن يتذكر الحوار الذي جرى يومئذ ؟ » ويجيب انصاره : « على رسلكم ! فهناك قليل من الناس لديهم القدرة على تذكر كل مــا يمر بهم مثله » . وهذا صحيح حتى عندما كان حدثاً وقبل أن يحبسه

العمى الذي أصابه تدريجاً . وعندما كان طالباً يدرس علم النفس في جامعة ولاية أوهايو طلب الأستاذ الى الطلبة ان يكتبوا ما تذكروه من مقالة تتألف من ١٠٠٠ كلمة ، فحصل ثيربر على ٧٨ في المائة ، ولم يكن بين زملائه من يدانيه. وهذا له أهميته ، فمعناه ان مؤلف « حياتي وأيامي العصيبة » لم يكن مضطراً الى اللجوء الى ذلك الفيض الوفير من القصص الخيالية التي تعج بها ذكريات الطفولة . واذا استثنينا ما يبيحه الأديب لنفسه من تقصير الزمن وتغيير ترتيب الحوادث فانني ، شخصياً ، لا أشك في صحة أدق التفاصيل التي يوردها ثيربر على أنها حقائق ، فهي في مجموعها حقائق بالمعنى الذي يهمنا .

وكل هذا له صلة بالحقيقة الراهنة ، وهي ان ثيربر الآن ، وقد كف بصره كلية ، أقدر منه على الكتابة في أي وقت مضى . ولو أصابت المحنة التي ابتلي بها شخصاً أقل نكراناً لذاته وأقل ولعاً بالكلمة السائرة لتحطم تحت ثقلها . أما ثيربر فقد وجد فيها ما يفيد . فقد قال ذات مرة : « ان الثمن الباقي من بصري يحجب عني المناظر المحزنة الكئيبة تاركا لي ما كان مليئاً بالحياة والاشعاع ، وبعض ذلك أصدقائي وجيراني » . وبعد ذلك بمدة وجيزة قال : « ان الأعمى يستريح من كل ما يشغل النظر » . واذا كان معنى ذلك انه

لم يعد يرسم كما كان يفعل ، فانه يعني أيضاً أنه أصبح أقـدر على تركيز طاقته على الفن الذي بقي له . والأرقام خير شاهد على ذلك . ففي الخمسة عشر عاماً الماضية كان أوفر نتاجاً في الكتابة منه في أي وقت مضى . لقد كتب كثيراً من القطع الوصفية لصحيفة **نيويوركر** ، واطلق لخياله العنان في القطع التصويرية التي يبدو في الظاهر انها كتبت للاطفال ولكنها في الحقيقة كتبت لنـا جميعاً ، ثم غاص في ذاكرتـه وسجلاتـه ليكتب سيرة صديقـه ومرشده هارولد روس محرر صحيفـة **نيويوركر** .

وقد ذكر صديقه لويس غارنت الناقد أن ثيربر كان يصوغ في ظلام العمى وصمت الليل الكلام الذي كان يمليـه في اليوم التالي ، فيرتب ويعيد الترتيب ، ويضيف ويسقط . وعندمـا يقرأ عليه ينقحه مرة أخرى ، وقد يكرر العمل عشر مرات . ولذلك لا غرابة في ان نثر شخص عرف بدقته اللغوية يصقل حتى يبلغ الكمال وهو ما زال محتفظاً بذلك اليسر والانسياب اللذين امتاز بهما من قبل . وفي عام ١٩٤٠ ظهرت مسرحيته الهزلية « الرجل ذلك الحيوان »[١] التي كتبها بالاشتراك مع اليوت نجنت فلقيت رواجاً منقطع النظير على مسارح برودواي ،

---

١ – The Male Animal

وبظهورها اتضح بجلاء ما كان يمكن أن يسلم به من قبل، وهو أنه يكتب للأذن كما كان يرسم للعين . لقد ساعده على تهذيب فنه أنه أصبح يسمع الكلمة في ذهنه قبل ان يقولها ثم يسمعها مرة أخرى اذ يقولها .

أما ان هذا الفن كان فناً حقيقياً منذ البداية فذلك ما تشهد به الصفحات التالية بما لا يدع مجالاً للشك . ومجمل القول ان هنا كاتباً أصيلاً جم المزايا ، لقد نشأ بعد ظهور « حياتي وأيامي العصيبة » جيل جديد ، وبعضهم سيلتقي بالمؤلف لأول مرة ، وهذا ما يحسدون عليه حقاً .

جون ك. هتشنز

مقدمة لسيرة

يقول بنفينوتو تشلّيني يجب أن لا يقدم المرء على كتابة قصة حياته إلا اذا كان قد بلغ الأربعين من العمر ، وان الذي يكتب سيرته بنفسه يجب أن يكون قد برع في شيء ما. أما اليوم فلا تجد شخصاً لديه آلة كاتبة يصغي الى الأستاذ الشيخ وقواعده الغريبة . فأنا لم أبرع في أي شيء اللهم إلا أن لدي مهارة فائقة – لا يستطيع أصدقائي لها تعليلا – في اصابة زجاجات الجعة الفارغة بالحصى من نحو ثلاثين خطوة . ثم انني لم أبلغ الأربعين بعد، غير أنني أوشكت أن أبلغ منتهى الشوط ، فرجلاي أخذتا

تهنان تحتي ، وأصبحت صور الأشياء تبدو غائمة في عيني ، ولم أعد أتبين الفتيات اللائي عرفتهن في عنفوان الشباب إلا بمقدار ما أتبين الأحلام.

وإخالني ما إن أبلـغ الأربعين حتى تكون طاقـاتي قد انكمشت على نفسها كالأزهار في الغسق ، فتتركني غير قـادر على كتابة ذكرياتي بما ينبغي من المغالطة وعدم الدقـة ، أو اذا كتبتها لا أقوى على حملهـا الى الناشر . ان الكاتب الذي يدلف الى الكهولة يبيت في وجـل من أن يضل طريقـه الى الناشر فيجد نفسه في مزرعة نائية . حيث يختفي كما اختفى أمبروز بيرس . وهو يخشى أيضاً أن ينعطف عند زاوية ليجد نفسه بعد قليل يتسكع في الجهة المقابلة. لقد عرفت كتـاباً في هذه السن الخطرة المضللة يتصلون هاتفياً ببيوتهم من مكاتبهم ، أو بمكاتبهم من بيوتهم ، ليسألوا بصوت منخفض عن أنفسهم ، واذ يجدون انهم ، لحسن الحظ ، ليسوا هناك يتنفسون الصعداء وقد اطمأنت نفوسهم . وأكثر ما يحدث ذلك للذين يكتبون القطع « الخفيفة » التي تتراوح بين ألف كلمة وألفين .

ان الناس يظنون أن هؤلاء الكتاب أشخاص مرحون لا تقلقهم هموم . ولكن هذه فكرة خاطئة ، فهم في الحقيقـة يحيون حياة مليئة بالترقب والخوف . فهم يجلسون على حافة

« كرسي الأدب » ، ولم يشعروا قط في « بيت » الحياة بأنهم في بيتهم فلم يخلعوا سُترهم ، وهم يخشون من الضياع في خضم القصة ذات الجزأين أو حتى ذات الجزء الواحد ، فيتشبثون بالحكايات القصيرة عن عثراتهم لأنهم لا يغوصون فيها الا الى الحد الذي يعرفون أنهم يستطيعون الخروج منه . وهذا النوع من الكتابة ليس تعبيراً مرحاً عن الذات وانما هو ضرب من التشنج السريع كوني ودنيوي في آن واحد . ولست أدري السبب في أن كتّاب مثل هذه القطع لديهم مقدرة فائقة على الوقوع في المشكلات الصغيرة : كالدخول الى الشقة الخطأ ، وشرب سوائل تنظيف الأثاث على أنها مسهل للهضم ، وقيادة السيارة في أحواض الزنبق التي يعتز بها الجيران ؛ وقد يصفع أحدهم واحداً من رجال العصابات ظناً منه انه أحد زملائه القدامى في المدرسة . فتسمية هؤلاء الناس « بالهازلين » — وهي كلمة عامة قبيحة — تعني عدم فهم طبيعة مشكلتهم ومشكلة طبيعتهم . فالذي يحرك عجلة اختراعهم الصغيرة هي يد السوداوية الثقيلة .

ان كاتباً من هؤلاء لا يعرف الاستقرار أينما ذهب ، وقد تضيق عليه الأرض بما رحبت اذا وقعت بقربه مقلاة أو رفّ ثوب . فحركاته هي الارتكاسات التافهة التي تصدر عن الذين

في نفوسهم مرض ، وهدوءه هو استمرار مؤقت للحيرة . وقد يُنزل الستائر في الصباح ويسعى الى الزوايا المظلمة الخانقة في الليل . وهو يتحدث مكبراً الصغائر ومستصغراً الأشياء العظيمة . وهو يصم أذنيه عن جلبة العالم المدوية اذ يتردى في فوضى أشد مما عرفه في أي وقت مضى ، ولكنه يسمع اجفالة الأرانب في الليل بجانب الطريق في البرية ، ويفزع اذا أطار الهواء عليه فجأة ورقة من صحيفة في الشارع فلصقت بركبتيه. وهو يستطيع النوم اذ ينهار النظام القائم من أساسه ، بينما يسري البرد في عروقه اذا سمع صوتاً غريباً في احدى غرف البيت في الساعة الثالثة صباحاً . وهو لا يخاف تهديد السلطة ولا يشعر به ، ولكنه يتلفت وراءه في الشوارع شبه المظلمة لئلا يتبعه رجال صغار لا يزيدون عن القدم والنصف طولاً ، ذوو عيون واسعة وشعر طويل .

انه من الصعب على شخص كهذا أن يتقيد بما أسماه فورد مادوكس فورد في كتاب ذكرياته السبب الوحيد الذي يجعل المرء يكتب مذكراته ، ذلك هو رسم صورة لعصره . فعصر كاتب القطعة القصيرة ليس عصر والتر ليبمان ، ولا عصر ستوارت تشيز ، ولا هو بعصر الاستاذ اينشتاين . انه عصره الخاص به ، تحده حدود قصيرة من آلامه وعثراته حيث

يكون مـا يصيب جهـازه الهضمي أو المحـور الخلفي لسيارته وعلاقاته المتشابكة مع ستة أشخاص أو ثمانية وبنايتين أو ثلاث أهم عنده من كل ما يحدث للأمـة أو العالم بأسره . فهو يعرف ، دون يقين ، ان الامة قــد فسدت ، وقرأ أن قشرة الأرض تتقلص تقلصاً مخيفاً وأن الكون يبرد شيئاً فشيئاً ولكنه لا يصدق أن أياً من الثلاثة في حالة أردأ من حالته .

ان العالم يخطو خطوات واسعة في قياس الأبعاد بين النجوم وفي النظريات الاقتصادية وصنع قاذفات القنابل ، ولكنه لا يسمع بهذا كله الا عندما يقع في يده عـدد قديم من مجلة تايم يجـده في حديقـة عامة للنزهـة أو في البيت الصيفي لأحـد أصدقائه . وهو يدرك ان بلايين الدولارات يسرقها كل عـام رجال البنوك والسياسيون ، وان هناك آلافاً من الناس دون عمل ؛ ولكن هذا لا يقلقه عشر مـا يقلق عندمـا يكتشف أنه أضاع ثلاثة أشهر في مراجعـة طبيب نفسي غبي ، او ان القطعة التي صرف عليها يومين كاملين كان روبرت بنشلي قـد أخرجها بصورة أحسن ، وربما أسرع ، عام ١٩٢٤ .

وعلى هذا فان عصر هذا الشخص ليس جديراً بأن يقرأ عنه ، اذا كان القارىء يريد معرفة ما كان يجري في العالم ايام كان الـكاتب المعني حياً ، وبخاصة اذا كان قد وُصف كتابه من

باب السخرية بأنه أحسن ما كتب . وخـير العوض في رأيي هو ذلك الشعور المريح بأن الانسان ، بعـد كل ذلك ، عاش حياة مقبولة هادئة اذا ما قيست بغيرها . ومن المؤسف أن الحياة المنتظمة نفسها لا توصل أي شخص بأمان الى القـــدر المحتوم الذي ينتظره في السماء . وكما قـال ف . هـوبكنسون سمث من قبل فان مخالب قطة البحر لا بد أن تدركنا جميعاً في النهاية .

جيمس ثيربر

ساندي هوك – كونتكت
٢٥ ايلول (سبتمبر) ١٩٣٣

لَيْلَة سَقَط السَّرِير



اعتقد أن ابرز مـــا مر بي في ايام شبابي وانا في كولومبس هو تلك الليلة التي سقط فيها السرير بأبي ، وهي قصة تُحكى خيراً من ان تُكتب (يبدو ان اصدقائي اخذوا يضيقون بها بعد ان سمعوها للمرة الخامسة او السادسة) ، لأنه من الضروري ان يبعثر المرء الأثاث ويضرب الابواب ويعوي كالـكلب لكي يخلق جواً مماثلاً للذي وقعت فيه هذه الحـــادثة التي لا تـكاد تصدق . ومع ذلك فانها وقعت فعلاً .

قرر ابي ذات ليلة ان ينام في الغرفة التي فوق الدرج ليبتعد عن بقيـــة الأسرة حيث يخلو لنفسه ويستطيع التفكير . وقد عارضت امي هذه الفكرة معارضة شديدة لأن السرير الخشبي

القديم كان ، كما قالت ، غير مأمون لأنه يتـأرجح فاذا سقط وقعت اللوحة الرئيسية على ابي وقتلتـه . ولكن ابي لم يكن ليثنيـه عن عزمه شيء ، وفي الساعة العـاشرة والربع اغلق الباب وصعد الدرج الضيق الملتوي . وعنـدما تمدد في السرير سمعنا صرير الألواح .

كانت تلك الغرفة في الحقيقة لجدي ينام فيها عندما يكون معنا ، ولكنه كان في تلك الآونة قد تركنا قبل بضعة ايام ، وهو في مثل هذه الحالات يغيب نحو ستة ايام او ثمانية، ليعود ثائراً مضطرب الاعصاب ومعهالاخبار بأن الاتحاد تديره مجموعة من الاغبياء وان جيش البتوماك لا سبيل له الى النصر .

وكان يزورنا في تلك الاثنـاء ابن عم لي اسمه بريغز بيل ، وكان يعتقد انه من المحتمل ان تنقطع انفاسه وهو نائم ، وكان يخشى ان يموت مختنقاً ان لم نوقظه كل ساعة . ولذلك اعتـاد ان يضع الى جانبه ساعة منبهـة تدق في فترات معينـة حتى الصباح ، ولكنني اقنعته بالاقلاع عن هذه العادة لأنه كان ينام في غرفتي ، وقد أفهمته انني خفيف النوم ، فاذا توقفت انفاس شخص ينام معي في الغرفة فانني استيقظ في الحـال . وقد جربني اول ليلة – وكنت أعلم انه سيفعلها – بأن أوقف نفسه عندما شعر من تنفسي بأنني نمت ، وفي الحقيقـة لم أكن قد

غفوت فعلاً فأيقظته . وقد قللت هذه الحادثة من مخـاوفه ، ولكنه مع ذلك اختار جانب الحذر ووضع زجاجة من خلاصة الكافور فوق رأسه حـتى اذا أوشك ان ينقطع نفسه تنـاول الزجاجة واستنشق الكافور فيتنبه . ولم يكن بريغز الشخص الوحيد في اسرتنا الذي كان يعاني من عقدة تميزه . فهنـاك العمة مليزا بيل (كانت تصفر كالرجل بأن تضع اصبعين في فمها وتنفخ) التي كانت تعتقد انها ستموت في «شارع هاي الجنوبي» لأنها ولدت فيه ، وفيه تزوجت . وهنـاك ايضاً العمة سارة شوف التي لم تذهب الى السرير في الليل الا وراودها الخوف من ان لصاً سيدخل البيت وينفث فيـه الكلوروفورم من انبوبة يضعها تحت الباب . ولمنع هذه الكارثة – وكانت تخشى البنج اكثر مما تحرص على الأدوات المنزليـة – كانت تجمع نقودهـا والأدوات الفضية وغير ذلك من الاشياء الثمينة لديها وتكدسها امام غرفة النوم ومعهـا ورقة مكتوب فيهـا : « هذا كل ما أملك ، خذه من فضلك ولا تستعمـل البنج فليس لدي شيء آخر » . اما العمـة غريس شوف فكانت هي الاخرى تخشى اللصوص ، ولكنها واجهت المشكلة بشجاعـة اكبر . كانت مقتنعة بأن اللصوص كانوا يدخلون بيتها كل ليلة خلال الاربعين السنة الماضية ، ولم يصرفها عن اعتقادها هذا انهـا لم تفقد من البيت اي شيء، وانما كانت تدّعي انها تخيفهم قبل ان يأخذوا

شيئاً ، وذلك بقذفها الأحذية في الممر . ولذلك كانت قبل ان تأوي الى سريرها تكدس بجانبها كل الأحذية الموجودة في البيت لتكون بمتناول يدها عند الحاجة ، وبعد خمس دقائق من اطفاء الانوار تجلس في السرير وتقول : « انصت! » . اما زوجها فقد اعتاد تجاهل الامر منذ عام ١٩٠٣ ، ولذلك فانه لم يكن يستجيب لدفعها وشدها وانما كان يتظاهر بأنه في سبات عميق ان لم يكن في الحقيقة كذلك، وعندئذ تسير على اطراف أصابعها وتفتح البـــاب بحذر وتقذف فردة حذاء في ناحيــة والفردة الثانية في الناحية الاخرى . وكانت في بعض الليــالي تقذف بالأحذية كلها وفي ليــالي اخرى تكتفي بزوجين منها .

يبدو انني استطردت وابتعــدت عن الأحداث التي وقعت ليلة سقط بأبي السرير . ففي منتصف تلك الليلة كنا كلنــا نياماً . ولـكي يتصور القـــارىء ما حدث بالضبط لا بد من التعريف بترتيب الغرف وساكنيها . في الغرفة الأماميــة من الطابق العلوي (تماماً تحت الغرفة التي على الدرج التي كان ابي نائماً فيها) كانت تنــام امي وأخي هيرمن الذي كان في بعض الاحيـــان يغني وهو نائم ، وكنت انا وبريغز بيل في الغرفة المجاورة ، وكان اخي روي في غرفة مقابلة لغرفتنا يفصلنــا عنه الممر . وكان كلبنا ركس ينام في الممر .

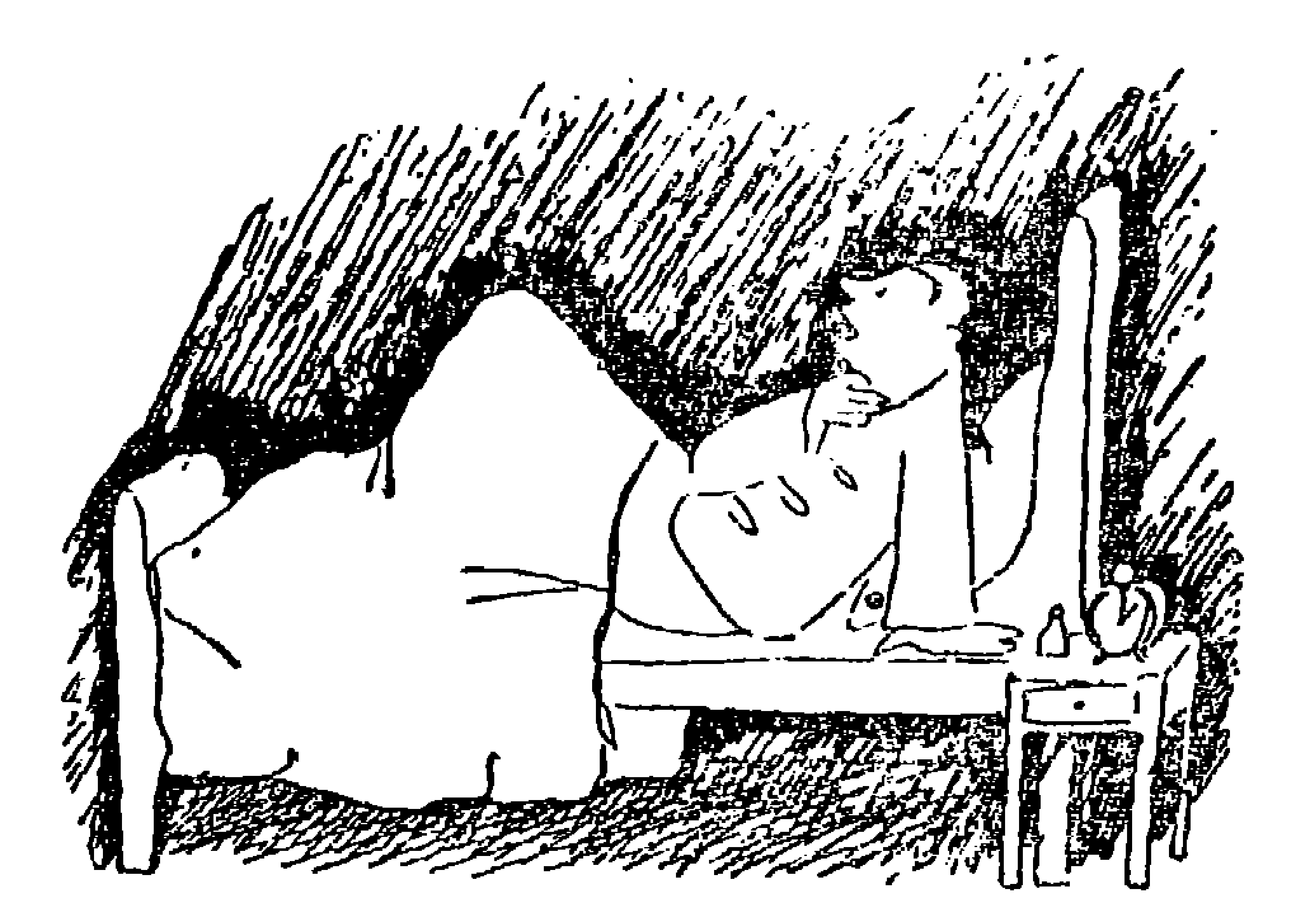


كانت في بعض الليالي تقذف بالاحذية كلها

وكنت انا أنام على سرير كأسرة الجيش التي لا يستطيع المرء ان ينام مرتاحاً عليها الا اذا استلقى في الوسط وترك العارضتين ترتفعان قليلاً ، وفي هذه الحالة لا يجوز ان ينقلب على جنبه ويقترب من العارضة لأن السرير ينقلب كله فوقه محدثاً صوتاً مفزعاً . وهذا ما حدث بالضبط في الساعة الثانية صباحاً . (ان امي هي التي تصر على وصف تلك الليلة كلما ذكرتها بأنها الليلة التي سقط فيها السرير بأبي) .

كنت ولا ازال من الذين يستغرقون في النوم بحيث يصعب ايقاظهم (لقد كذبت على بريغز) ، ولذلك لم احس عندما انقلب بي السرير فاصبحت على الارض والسرير من فوقي اذ انه بقي فوقي كالقبو فلم أصب بأذى وانما يسر لي من الدفء ما لم اشعر به وانا فوقه . وهكذا لم استيقظ ، فقد اقتربت من الصحو ولكن لم ألبث ان غفوت. غير ان الضجة ايقظت امي فتبادر الى ذهنها ان مخاوفها قد تحققت وان السرير الخشبي الكبير قد سقط بأبي، وصاحت «انظروا ماذا جرى لأبيكم !» فأيقظت صرختها هذه (لا وقوع السرير) اخي هيرمن الذي كان نائماً في الغرفة نفسها ، وتبادر الى ذهنه ان امه فقدت السيطرة على اعصابها دونما سبب ظاهر ، فحاول ان يهدئها بقوله « انت بخير ! » . وهكذا اخذا يتبادلان الصراخ : هي

تقول « انظروا ماذا جرى لأبيكم ! » وهو يجيبها « انت بخير يا امي ! » . واخيراً ايقظ الصراخ ابن عمي بريغز . وكنت في هذه الاثناء قد اخذت أعي ما يجري حولي ولكن لم يخطر ببالي ان السرير فوقي بدلاً من ان اكون انا فوقه . واذ صحا بريغز على صيحات الخوف تبادر الى ذهنه انه يختنق وانا نحاول « ان نرد اليه الروح ! » . فأنَّ أنَّةً خافتة وتناول زجاجة الكافور القريبة منه وبدلاً من ان يستنشقها صبها على نفسه فامتلأت الغرفة برائحة الكافور ، وأخذ بريغز يسعل ويشهق كالغريق لأنه أوشك ان يوقف أنفاسه وهو يحاول ان يستردها . ثم قفز من السرير الى الشباك المفتوح ولكن رجليه قادتاه الى شباك مغلق ، فضربه بيده وسمعت الزجاج يتكسر



وتبادر الى ذهنه انه يختنق

في الممر السفلي . وفي تلك اللحظة حاولت ان أنهض ، ولا تسل عن شعوري عندما احسست بالسرير فوقي . وكان النعاس ما زال مسيطراً علي ، وظننت بدوري ان الضجة كلها كانت محاولة لتخليصي من وضع لا بد انه خطر ولا شك انه لم يقع لاحد من قبل ، وصحت : « أخرجوني! أخرجوني! » . وكمن ينتابه كابوس ، شعرت بأنني مقبور في منجم . وشهق بريغز وهو يكاد يختنق من الكافور .

وفي هذه الأثناء كانت أمي – وهي ما زالت تصيح ومن خلفها هيرمن يصيح ايضاً – تحاول فتح باب الغرفة التي فوق الدرج لتدخل وتخرج جثة أبي من بين الأنقاض . ولكن الباب عصي ولم ينفتح . وقد زاد شدها بالباب وضربها عليه الجلبة والضجة فاستيقظ روي والكلب وراح الأول يرسل سيلاً من الأسئلة بينما كان الثاني مسترسلاً في العواء . وأخيراً استيقظ أبي – وهو أعمقنا نوماً – فلم يخطر بباله الا أن البيت يحترق ، فقال بصوت مثقل بالنوم (وكان كلما صحا من النوم بقي بضع دقائق لا يعرف أين هو) : « أنا قادم ! أنا قادم ! » . وكانت أمي ما زالت تعتقد أنه علق تحت السرير فتراءى لها ان قوله « أنا قادم ! » انما هو صلاة لخالقه ، فصاحت : « انه في النزع الأخير ! » . وعندها صاح بريغز : « أنا بخير ! » ظناً

منه ان اقترابه من حافة الموت هو الذي أزعج أمي .

وأخيراً اهتديت الى مفتاح النور في غرفتي ففتحت الباب ولحقت أنا وبريغز سائر الأسرة عند باب غرفة أبي . وكان كلبنا لا يحب بريغز فهجم عليه ظناً منه أنه السبب في كل ما حدث ، ولكن روي أمسك بالكلب وزجره . ثم سمعنا ابي ينزل من السرير . ودفع روي الباب دفعـة قوية فانفتح ونزل ابي معنا وهو شبه نائم ومنزعج ، ولكنه كان سليماً معافى . ولما رأته امي اجهشت بالبكاء . وعوى ركس . وسأل ابي : « ما الذي جرى هنا ؟ » .



ولكن روي امسك بالكلب وزجره

واخيراً جمعنا الحقائق ، بعضها مع البعض الآخر لنعرف ماذا حدث فكانت اشبه بأحجية دون بداية او نهاية .

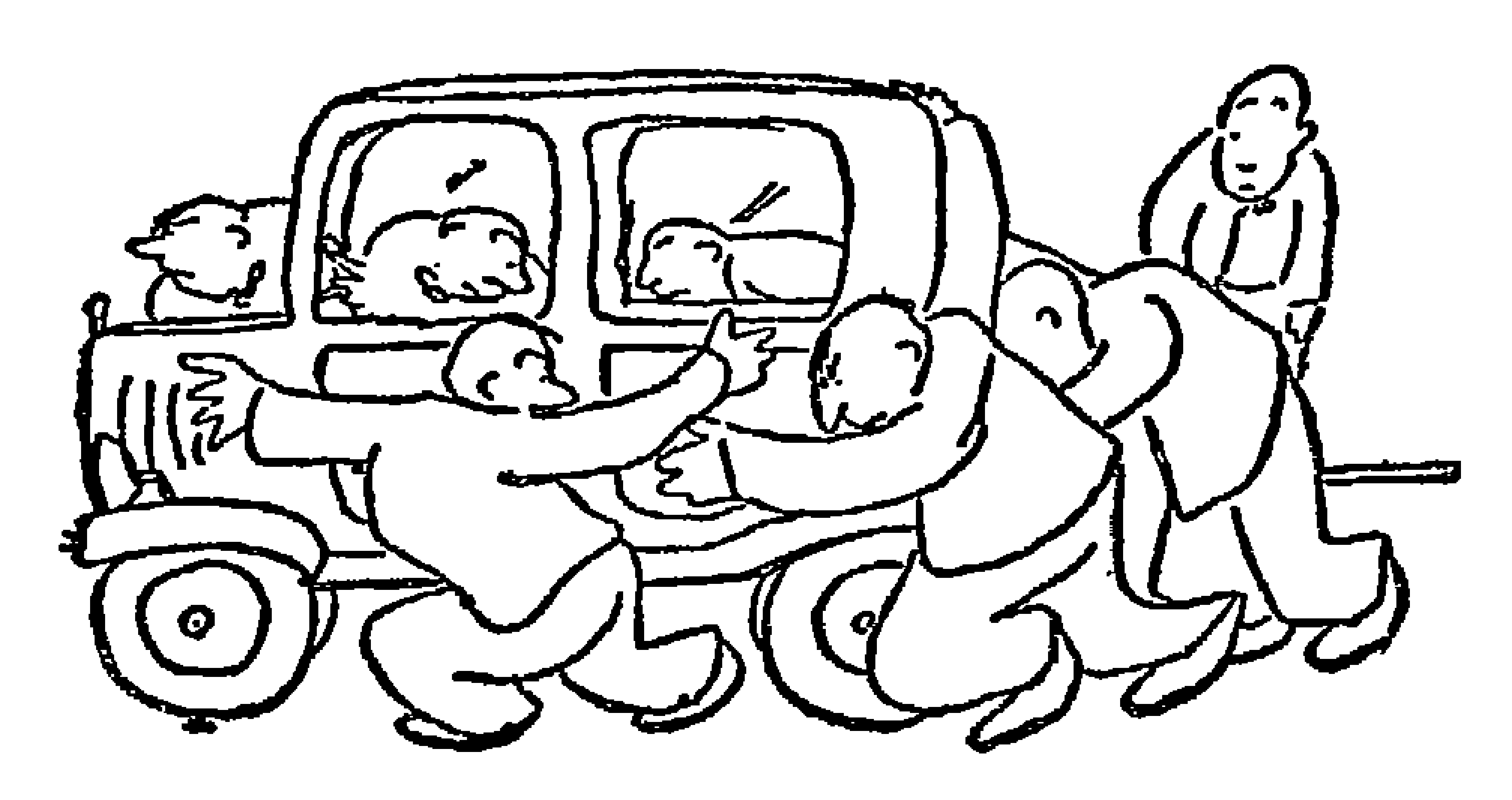
ولحسن الحظ لم يترتب على الحادث من نتائج سيئة سوى ان ابي اصيب بالزكام لأنه نزل من غرفته حافياً . اما امي التي اعتادت ان تنظر الى الجانب المشرق من كل شيء فقالت : « الحمد لله ان جدكم لم يكن هنا ! » .

السّيارة التى
كان علينا أن ندفعها



اعتاد كثير من الذين يكتبون سيرهم من امثـال لنكـولن ستيفنز وجيرترود اثرتون ان يكتبوا عن الهزات الأرضية التي شهدتها اسرهم . وانا لا استطيع ان افعل مثلهم لأن اسرتي لم تمر بها هزة ارضية، غير ان بعض الأشياء التي مرت بنا ونحن في كولومبس كانت اشبه بالهزات الارضية. واذكر على التخصيص ما اصابنا من سيارة قديمة من طراز ريو لم تكن تسير الا اذا دفعت وأعمل احدهم جهاز تعشيق التروس اثناء الدفع . ومرة استطعنا تشغيلها بسهولة بواسطة المحرك اليدوي، ولكن السيارة كانت من القدم بحيث لم يكن يمكن تشغيلها عادة الا اذا دفعت. وكان دفعها يحتاج بطبيعة الحال الى اكثر من شخص واحد وربما احتاج الى خمسة او ستة تبعاً لطبيعة الطريق التي كانت ستدفع

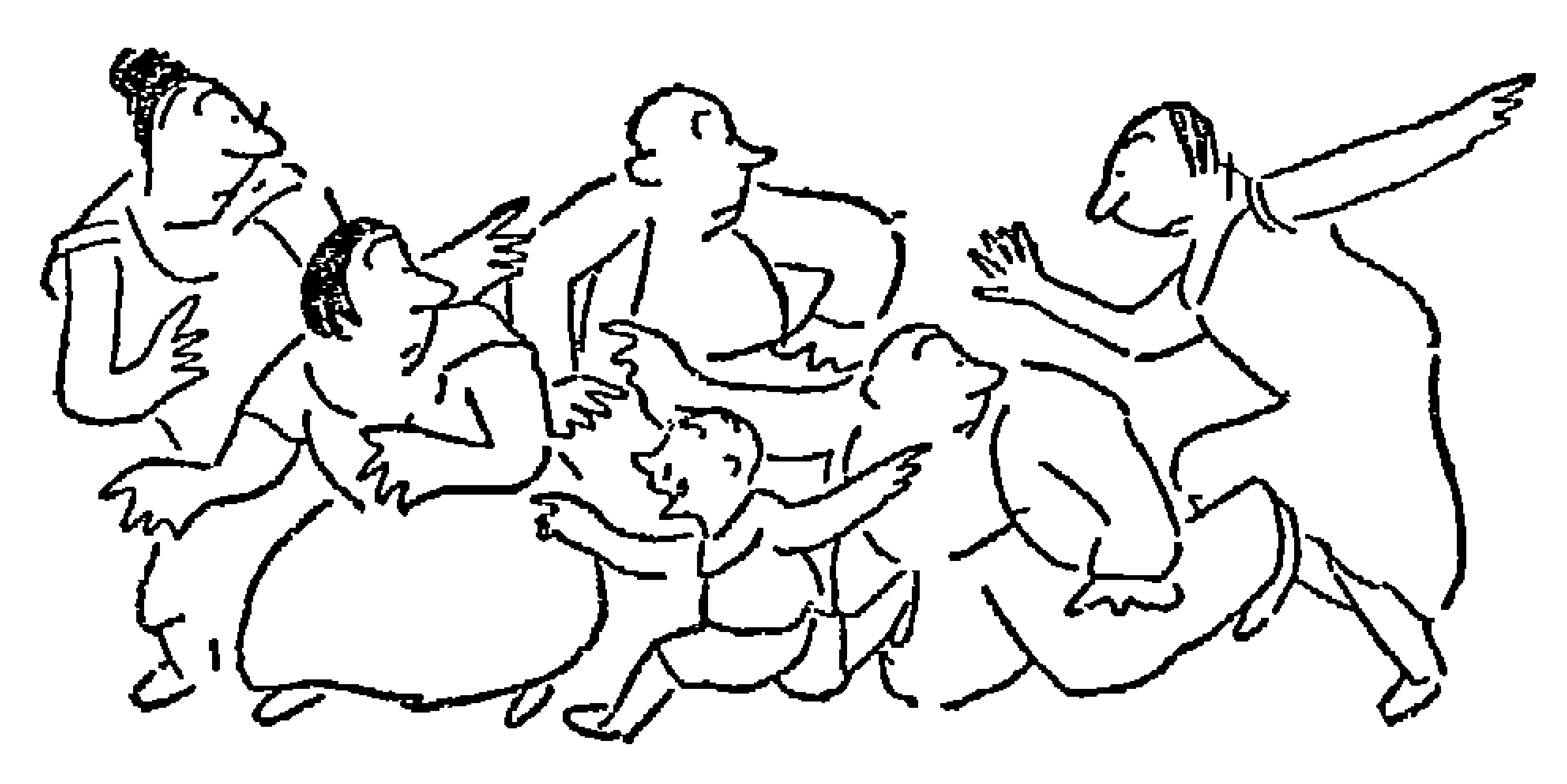
عليها . وكانت السيارة نفسها غريبة لأن مداس الفرامل وجهاز التعشيق كان واحداً مما جعل من السهل ان توقف السيارة وانت تريد زيادة سرعتها فتضطر الى دفعها من جديد .



وربما احتاج دفعها الى خمسة او ستة

وكان ابي يصاب بالمغص من دفـع السيارة ، وفي كثير من الأحيان كان يضطر الى البقاء في البيت بسبب عدم قدرته على الذهاب الى عمله . ولا اذكر انه احب تلك السيارة حتى عندما كانت في حالة جيدة ، وكان في ذلك يشاركني جهلي بالسيارات كما كانت قبل عشرين سنة او اكثر . وكان زملائي في المدرسة يعرفون كل سيارة تمر في الشارع فهذه من طراز توماس فلاير وتلك من طراز فايرستون كولومبس ، وهذه من نوع ستيفنس دوريا والأخرى من نوع رامبلر وهكذا ... اما انا فلم استطع ان اعرف نوع سيارة تمر بي . وكانت السيارة الوحيـدة التي

تثير اهتمامي هي السيارة التي كان يركبهـا الشخص الذي كان دائماً يصيح: « تهيأوا » . وهي سيارة حمراء غريبة لها باب من الخلف،وكان الرجل يركبها ويدور بها شوارع المدينة وهو يصيح بمكبر صوت معه «تهيأوا ! تهيأوا ! ستقوم القيامة !».وكان وعظه المخيف كرعد في الصيف اذ يأتي في اغرب الاوقات وفي أعجب الأمكنة . واذكر مرة انني كنت أشاهد تمثيلية « الملك لير » في مسرح كولونيال فأخـذ صاحبنا يطلق من الشرفة وعظـه يضيفه الى هذيان ادغار وتشكي لير وعبارات البهلول . وكان المسرح في ظلام دامس وكانت تنبعث من جانبـه ومضات من البرق ولحظات من هزيم الرعـد . ولم استطع انا او والدي ، الذي كان يشاهد المسرحية ، ان نتابع المنظر اذ كان الحوار على هذا النحو :



الرجل الذي كان يصيح « تهيأوا ! »

ادغار : توم بردان ... اوه دي دي دو دي ... الله

يرحمك من العواصف ولعنات النجوم!

(رعد بعيد)

لير : ماذا ؟ هل أوقعته بناته في هذه الورطة ؟

صاحبنا : تهيأوا ! تهيأوا !

ادغار ! جلس البليكان على صخرة البليكان ...

هالو ، هالو ، لو ، لو !

(وميض البرق)

صاحبنا : ستقو...م القيا...مة !

البهلول : هذه الليلة الباردة ستحيلنا كلنا بهاليل ومجانين !

ادغار : احذر الشيطان الرجيم ؛ اطع والديك ...

صاحبنا : تم ... يأوا !

ادغار : توم بردان !

صاحبنا : ستقو...م القيا...مة ... !

واخيراً عثروا عليه واخرجوه وهو مـا زال يصيح . ولا اظن ان المسرح عرف في ايامنا كثيراً من هذه الحالات .

ولنعد الى السيارة . من اسعد ذكرياتي عنها ان عمرها كان ثماني سنوات وان اخي روي جمع يومها كثيرا من ادوات المطبخ ووضعها كلها في كيس وربط الكيس بخيط الى السيارة بحيث اذا تحركت ابسط حركة انقطع الخيط ووقعت الأدوات على

الأرض دفعة واحدة . وكان قصد روي ان يخيف والدي الذي كان يخشى دائماً ان تنفجر السيارة . ونجحت الحيلة نجاحاً تاماً . كان ذلك قبل خمسة وعشرين عاماً؛ ولكن تلك الحادثة كانت من اللحظات القليلة التي اود ، لو استطيع ، ان اعيشها مرة ثانية ، ولكن لا اخالني استطيع في هذا الوقت .

انقطع الخيط في ظهيرة جميلة عندما كان روي يقود السيارة على شارع برايدن قريباً من الشارع الثاني عشر . وكان ابي قد أغمض عينيه وطرح قبعته جانباً وراح يستمتع بالنسيم العليل . وقد احدثت السكاكين والشوك ومفاتيح العلب وأغطية القدور والمغارف وخفاقات البيض صوتاً جميلاً ظل يرن في الأسماع مدة. وعندئذ صاح ابي: « اوقف السيارة » فأجاب روي : « لا أستطيع ، لقد وقع المحرك ! » ، وكان ابي يعلم ما معنى ذلك ، او ما يمكن ان يفهم من ذلك ، فصاح « يا الله! » .

وقد انتهت هذه العملية ، بطبيعة الحال ، نهاية غير سعيدة لأنه كان علينا ان نرجع لنجمع الادوات التي تناثرت ، وحتى ابي عرف الفرق بين قطع السيارة وادوات المطبخ. اما امي فما كانت لتستطيع هي او امها التمييز بين الاثنين . فأمي مثلاً كانت تظن — بل تعلم — ان قيادة السيارة وهي خالية من البنزين خطرة جداً لأنها ، في رأيها ، تقلي الصمامات . وكانت

توصينا كلما ادرنا السيارة بقولها : « اياكم والقيادة في انحاء المدينة دون بنزين ! » . وكان البنزين والزيت والماء في نظرها شيئاً واحداً ، وهو ما جعل حياتها مربكة ومحفوفة بالمخاطر . وكان اخوف ما تخاف منه الحاكي - كان لدينا جهاز قديم جداً - وكانت امي تخشى ان ينفجر ، وبدلاً من ان تطمئن عندما شرحنا لها انه لا يدور بالكهرباء او البنزين ازدادت فزعاً اذ تبادر الى ذهنها ان ما يديره هو جهاز جديد غير مجرب لا تدري في اي لحظة ينفك ويتركنا ضحايا وشهداء تجارب اديسون الخطرة . اما التليفون فكانت تطمئن اليه اكثر من الحاكي اللهم الا في الأيام العاصفة اذ كانت كلما هبت الريح ترفع السماعة لسبب لا نعلمه وتعلقها بعيداً عن الجهاز . وكان طبيعياً ان تقع فريسة لتلك المخاوف التي لا مبرر لها فأمها قضت السنوات الاخيرة من حياتها في قلق من ان تكون الكهرباء تنضح في جميع انحاء البيت دون ان يراها احد . وكانت تصر على انها تتسرب من أمكنة المصابيح الخالية . وكانت تضع مصباحاً في المكان الخالي فان اضاء جرت الى المفتاح وقطعت التيار ورجعت الى المجلة التي كانت تقرؤها وهي مطمئنة الى انها أوقفت تسرب الكهرباء الذي يكلف كثيراً ويشكل خطراً كبيراً . ولم يكن في وسع اي انسان ان يزيل هذه الفكرة من رأسها .



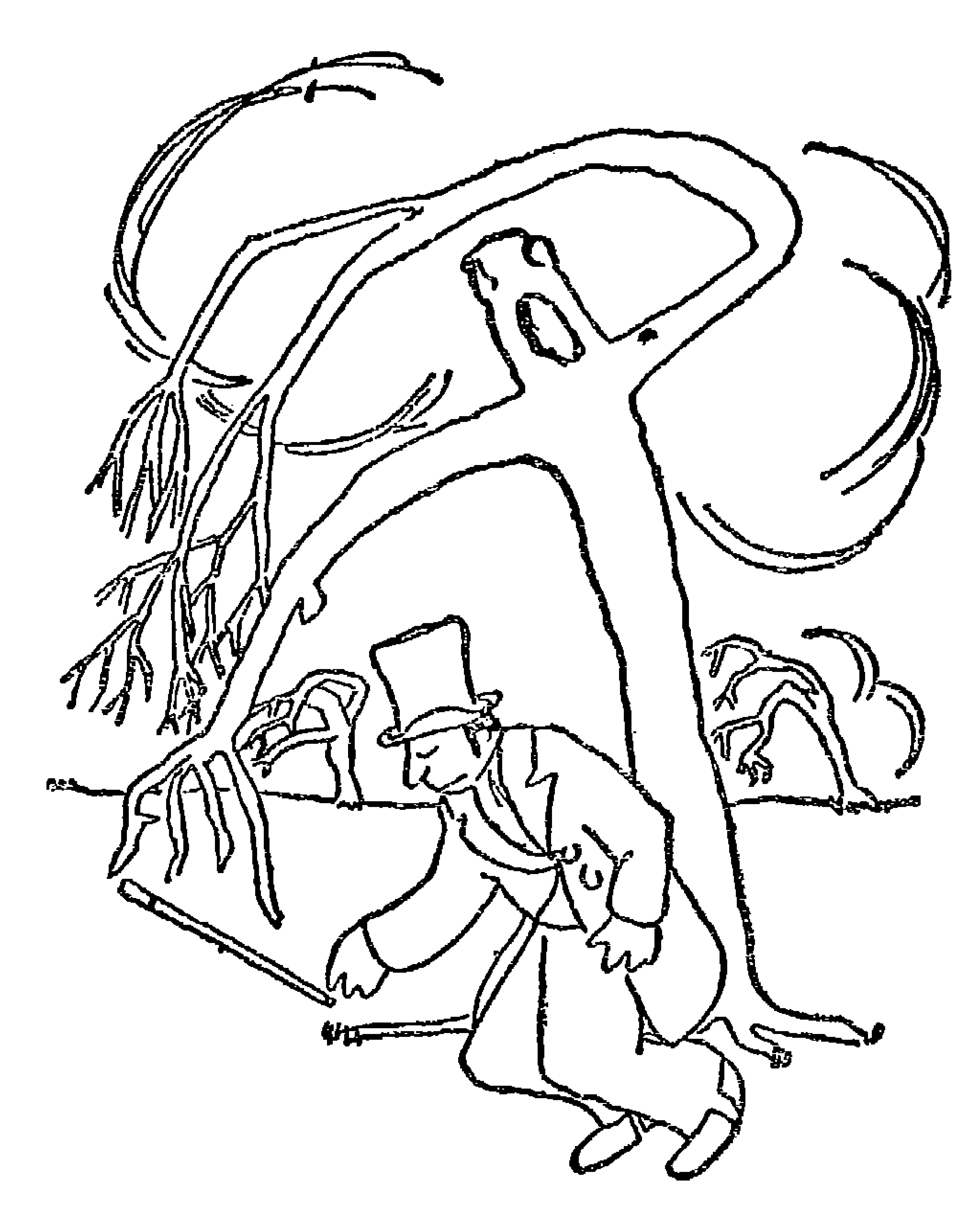
الكهرباء تنضح في جميع انحاء البيت

وأخيراً انتهت سيارتنا القديمة نهاية مؤلمة . فقد أوقفناها مع رتل من السيارات ولكن بعيداً عن حافة الشارع . وفي أواخر الليل والشارع مظلم مرت سيارة كبيرة وحملت السيارة القديمة كما يحمل كلب الصيد أرنباً ، وراحت تجرجرها حتى اذا انفلتت منها لحظة علقت بها مرة أخرى ، وكنت تسمع صوت العجلات وهي تنزلق ثابتة على الشارع والعوارض تقرقع وتتقصف ، ورأيت عجلة القيادة وقد ارتفعت في الهواء وطارت في اتجاه شارع فرنكلن محدثة صفيراً حزيناً ، والبراغي والقطع الصغيرة تتطاير كالشرر من دولاب المجلخ . لقد كان منظراً رائعاً حقاً محزناً لكل انسان (الا سائق السيارة لأنه كان محتداً) . وأظن ان بعضنا لم يستطع تمالك نفسه فانفجر باكياً . واكبر الظن ان البكاء هو الذي سبب لجدي ما أصابه . فقد كان الزمن مختلطاً عنده ولا يذكر انه شاهد السيارات وما شابهها في حياته . ويبدو انه استنتج من الكلام والتأثر والبكاء ان شخصاً ما قد توفي ، ولم نستطع انتزاع هذا الوهم من رأسه . وبعد ان قضينا اسبوعاً نحاول تسليته ازداد تصلباً وتشبثاً بموقفه مؤكداً انه حرام بل عار على الاسرة ان تؤجل الجنازة اكثر مما فعلت . فصاح ابي للمرة الثلاثين محاولاً ايضاح الأمر للرجل الشيخ : « لم يمت أحد ! كل ما في الامر ان السيارة تحطمت ! » . ولكن جدي سأل غاضباً : « هل كان

سكراناً ؟ » — فسأله ابي « ومن الذي كان سكراناً ؟ » فقال : « زيناس » . وهكذا وجد اسماً للجثة ، وهو أخوه زيناس الذي كان ميتاً فعلاً ولكن ليس من قيادة السيارة وهو سكران ، وكانت وفاته عام ١٨٦٦ .

وكان زيناس شاباً شاعرياً رقيقاً ، وكان عندما نشبت الحرب الأهلية في الحادية والعشرين من عمره ، فسافر الى امريكا الجنوبية وكتب يقول انه سيبقى حتى تهدأ الحالة . ولما هدأت الحالة وعاد التقط المرض الذي كان يصيب اشجار الكستناء ولم يلبث ان قضى نحبه . وكانت تلك الحادثة الوحيدة في التاريخ التي استدعي فيها طبيب الاشجار ليرش انساناً ، فكانت مسألة دقيقة بالنسبة الى العائلة اذ لم يلتقط المرض أي شخص آخر في الولايات المتحدة . وقد اعتبر بعضنا مصير زيناس ضرباً من عدالة الاقدار .

وبعد أن عرف جدي — كما ظن — من الذي توفي لم يعد من المناسب أن نعيش معه في نفس البيت وكأن شيئاً لم يحدث ، فقد كانت تنتابه ساعات من الغضب الشديد يهدد فيها بأن يشتكي الى لجنة الصحة ما لم تتم مراسيم الجنازة فوراً . ووجدنا ان علينا أن نفعل شيئاً ما لوضع حد لهذه المسألة . فأقنعنا احد اصدقاء أبي — واسمه جورج مارتن — بأن يتزيا بزي



التقط المرض الذي كان يصيب أشجار الكستناء

القرن التاسع عشر ويدعي انه العم زيناس لعل فكر جـدي يستريح وكان منظره مهيباً بالقبعة العالية والسبلات ، شديـد الشبه بصور زيناس الموجودة في الالبوم . ولن انسى ما حييت تلك الليلة عندما دخل هذا الزيناس غرفـــة الجلوس يصرخ ويضرب الارض بقدمه . فتح الرجل ذراعيه وصاح بجـــدي « كِلِمْ ! » . فاستدار جدي ببطء صوب هذا المتطفل وشخر قائلاً بصوته الجهوري : «من أنت؟». وأجاب مارتن : «أخوك زيناس ! أخوك زيناس بلحمه ودمه !» . فقال جدي : « ما هذا الهراء ؟ زيناس توفي بمرض الكستناء سنـة ١٨٦٦ ! » .

كثيراً ما كانت تصيب جدي مثل حالات التجلي المفاجئة هذه ، وكانت تسبب لنا من الارتباك أشد مما كانت تسببـه نوباته . وقد فهم قبل ان ينام تلك الليلة أن السيارة قد تحطمت وأن تحطمها هو سبب كل الهرج والمرج الذي حدث في البيت. وقال له أبي يصف الحادث : « تحطمت وتبعثرت قطعـاً » . وأجاب جدي: «كنت أعلم انها ستتحطم. كم قلت لكم اشتروا بوب توليدو » .

يَومَ انهَارَ السَّدُ

كنت أود لو أنسى ما قاسيته انا وأسرتي يوم فــاض نهر أوهايو في عام ١٩١٣ . ومع ذلك فــان شعوري نحو ولايتي ومدينتي لم يغيره ما عانيناه من مشقات ولا مــا خبرناه من اضطراب وفوضى . انــني الآن هــانىء مرتاح وأتمنى لو كانت مدينة كولومبس هنا . ولكن اذا كان هناك شخص دعا على مدينة ان تذهب الى الجحيم فقد كنت أنا ذلك الشخص عصر ذلك اليوم من عام ١٩١٣ ، الذي ساد فيه الفزع والرعب عندما انهار السد أو على الاصح عندما ظن كل من في المدينة أن السد قد انهار . لقد رفعتنا تلك التجربة الى العلاء ولكنها في الوقت نفسه فتت في عزائمنا . وقد ارتفع جدي على الاخص ارتفاعاً لم تفقده الايام روعته عندي وان يكن صموده للفيضان ناتجاً

من سوء فهم عميق ، ذلك ان الخطر الذي يجب علينا أن نقف في وجهـه هو فرسان غـابة ناثان بـدفورد . وكانت الوسيلة الوحيدة للهرب أمامنا هي أن نفر من البيت ، ولكن جدي منعنا من اتخاذ هذه الخطوة باصرار وعناد ، فقد استل سيفه واخذ يهزه ويصيح : «دعوا أبناء ... يأتون» . وكانت جموع الناس في هذه الاثناء تمر ببيتنا جارية لا تلوي من شدة الفزع على شيء فلا تسمع الا صيحات تقول : «شرّقوا! شرّقوا! ». وكان السبيل الوحيد أمامنا للحاق بتلك الجموع هي أن نطرح جدي بخشبة المكواة . وقد جعل وقوف جدي في وجهنا — كان طوله اكثر من ستة اقدام ووزنه نحو مائة وسبعين رطلاً — جميع الناس يسبقوننـــا بأكثر من نصف ميل . ولو لم يرجع جدي الى رشده عنـد زاوية شارع بارسون لأدركنـا السيل وأحدقت بنا المياه الدافقة — طبعاً لو كانت هناك مياه دافقة. وبعد أن زايل الناس فزعهم وهدأت نفوسهم وعادوا الى بيوتهم ومكاتبهم بشيء من الخزي وكل واحد يقلل المسافة التي ركضها ويقدم مختلف الاعذار للهرب ، أوضح مهندسو المدينة انه حتى لو انهار السد فان منسوب الماء لن يرتفع سوى بوصتين في الجانب الغربي . وكان منسوب الماء في الجانب الغربي وقت الفزع أقل من ثلاثين قدماً وهو لم يزد عن ذلك في جميع مدن أوهايو أيام الفيضانات الربيعية الكبيرة التي حدثت قبل عشرين سنة. أما

الجانب الشرقي (حيث كنا نسكن وحيث كان الجري كله) فلم يكن عرضة لأي خطر ، ولم تكن المياه لتصل الى شوارعه الا اذا ارتفع منسوب الماء في النهر خمسة وتسعين قدماً .

وعلى أي حال فان كوننا آمن من القطط تحت الموقد لم يقلل من اليأس والفزع اللذين أصابا سكان الحي الشرقي عندما سرت الصيحة بأن السد انهار سريان النار في الهشيم . ان اشد الرجال وقاراً وتعقلاً ورباطة جأش تركوا نساءهم وسكرتيراتهم وبيوتهم ومكاتبهم ومضوا يجرون صوب الشرق. قليل من الانذارات في العالم تفزع بمقدار ما تفزع الصيحة : « انهار السدّ ! » . وقليل من الناس يقفون ليفكروا في معنى النذير الذي يسمعونه حتى الذين يسكنون في مدن تبعد خمسمائة ميل عن أقرب سد .

وكما اذكر فان شائعة انهيار السد في كولومبس بدأت حوالي ظهر يوم ١٣ آذار (مارس) ١٩١٣ . وكان الشارع الرئيسي في المدينة يعج بالناس ورجال الاعمال الذين كنت تسمعهم يتجادلون ويحسبون ويعرضون ويرفضون ويتنازلون . وكان داريوس كوننغواي ، وهو من كبار محامي الشركات في الغرب الاوسط ، يقول للجنة المنافع العامة بلهجة يوليوس قيصر انه أيسر عليها أن تحرك نجمة القطب من أن تزحزحه عن موقفه.

وكان هناك آخرون يتبجحون ويأتون بحركات تافهة . وفجأة أخذ شخص يجري . ولعل كل ما كان من امره انه تذكر في تلك اللحظة موعداً للقاء زوجته ولكنه تأخر عنه . ومهما يكن السبب الذي جرى من أجله فانه راح يجري شرقاً ولعله كان ذاهباً الى مطعم مرامور وهو مكان يليق بالمرء أن يقابل زوجته فيه. ثم أخذ شخص يجري أيضاً ولعله كان بائع صحف. وكان هناك رجل ثالث تبدو عليه سيماء وقار رجال الأعمال قد أخذ يحث خطاه وكأنه يوشك أن يجري . وفي عشر دقائق كنت ترى كل شخص في الشارع الرئيسي يجري : من مخزن الاتحاد حتى المحكمة . وسُمعت كلمة السد من الهرج واللغط ، وسرعان ما نماها الفزع الى جملة « انهـــار السدّ ! » . ولا تدري من الذي اطلق الرعب من عقاله : قد يكون عجوزاً في سيارة صغيرة أو شرطي المرور أو صبياً صغيراً — لا أحد في المدينة يدري وليس مهما ان ندري . وراح نحو الفـــين من البشر يجرون بكل ما أوتوا من قوة وقد دبت بينهم الفوضى وهم يصيحون : « شرّقوا ! » ، أي شرقوا بعيـــداً عن النهر ، شرقوا حيث السلامة . وتوالى الصياح : « شرّقوا ! شرقوا ! شرقوا ! »

كتل سوداء من البشر أخـــذت تتسابق في الجري في كل

شارع يتجه شرقاً . واول ما انطلقت من الحوانيت والمكاتب ودور السينما ، ولم تلبث ان أخذت تكبر وتكبر بما ينضم اليها من النساء والأطفال والمقعدين والخدم والكلاب والقطط ، والكل يولول ويصيح . كلهم فروا من بيوتهم لا يلوون على شيء : لم يغلقوا باباً ولم يطفئوا ناراً تحت قدر . غير ان امي اطفأت ، كما اذكر ، كل مواقد النار وحملت معها بعض البيض ورغيفين . وكان في نيتها ان تبلغ « القاعة التذكارية » التي كان يفصلنا عنها شارعان ، وان تعتصم في احدى غرف الطابق العلوي المليئة بالغبار حيث كان يجتمع المحاربون القدماء وحيث خزنت الأعلام القديمة والديكورات المسرحية . ولكن الجموع المضطربة التي كانت تصيح « شرقوا ! » حملتها معها كما حملت سائر افراد الأسرة . وعند شارع بارسون ثاب جدي الى رشده واستدار الى الجموع المتقهقرة كالنبي المنتقم وأخذ يعنف الرجال ويحثهم على جمع صفوفهم وللوقوف في وجه الثائرين الأوغاد ، ولكنه في النهاية ادرك ان السد قد انهار وصاح بصوته الجهوري « شرقوا ! » وكان ممسكاً طفلاً صغيراً بيد ورجلاً نحيف الجسم تاهز الثانية والأربعين باليد الأخرى ، وشيئاً فشيئاً اخذنا نسبق الذين تقدمونا .

وكان رجال المطافىء والبوليس والجيش المنتشرون بين



ألفان من البشر يجرون بكل ما أوتوا من قوة


JOHN RUMPHREY

الجمـــوع النافرة ببزاتهم الرسمية – كان هناك استعراض في فورت هيز في الجزء الشمالي من المدينـــة – يضفون على تلك الجماهير شيئاً من الزينة . وقد حدث ان مرت طفلة بشرفـة يجلس عليها ضابط من المشاة وصاحت « شرقوا ! ». والضابط معتاد على اتخاذ القرارات السريعة وتنفيذ الأوامر دون تردد ، فانتفض من غفوته وراح يجري بكل طاقته ، وسرعان مـا ادرك الطفلة التي كانت تصيـــح « شرقوا ! » . واستطاعا (الضابط والفتاة) افراغ جميع البيوت في ذلك الشارع من أهلها . واعترض رجل سمين طريق الضابط يسأله ما الخبر . فأجابت الطفلة لاهثة « انهار السد ! » وعقب الضابط « انهار السد ! شرقوا ! شرقوا ! ». وفي لحظات كان يقود – والطفلة بين يديه – جماعة تتألف من نحو ثلاثمائة شخص تجمعوا حوله من البيوت والحوانيت والمرائب والساحات .

ولم يستطع احد ان يحسب العدد الصحيح للذين شاركوا في ذلك الزحف الكبير عام ١٩١٣ ، لان الفزع الذي شمل المدينة من شمالها الى جنوبها سكت فجأة كما بدأ واخـذ المهاجرون على اختلاف اجناسهم واعمارهم ووظائفهم يعودون الى بيوتهم تاركين الشوارع هادئة خالية . ولم يدم الصراخ والعويـــل وهجر المدينة اكثر من ساعتين . وقد قطع قليـل منهم اثني

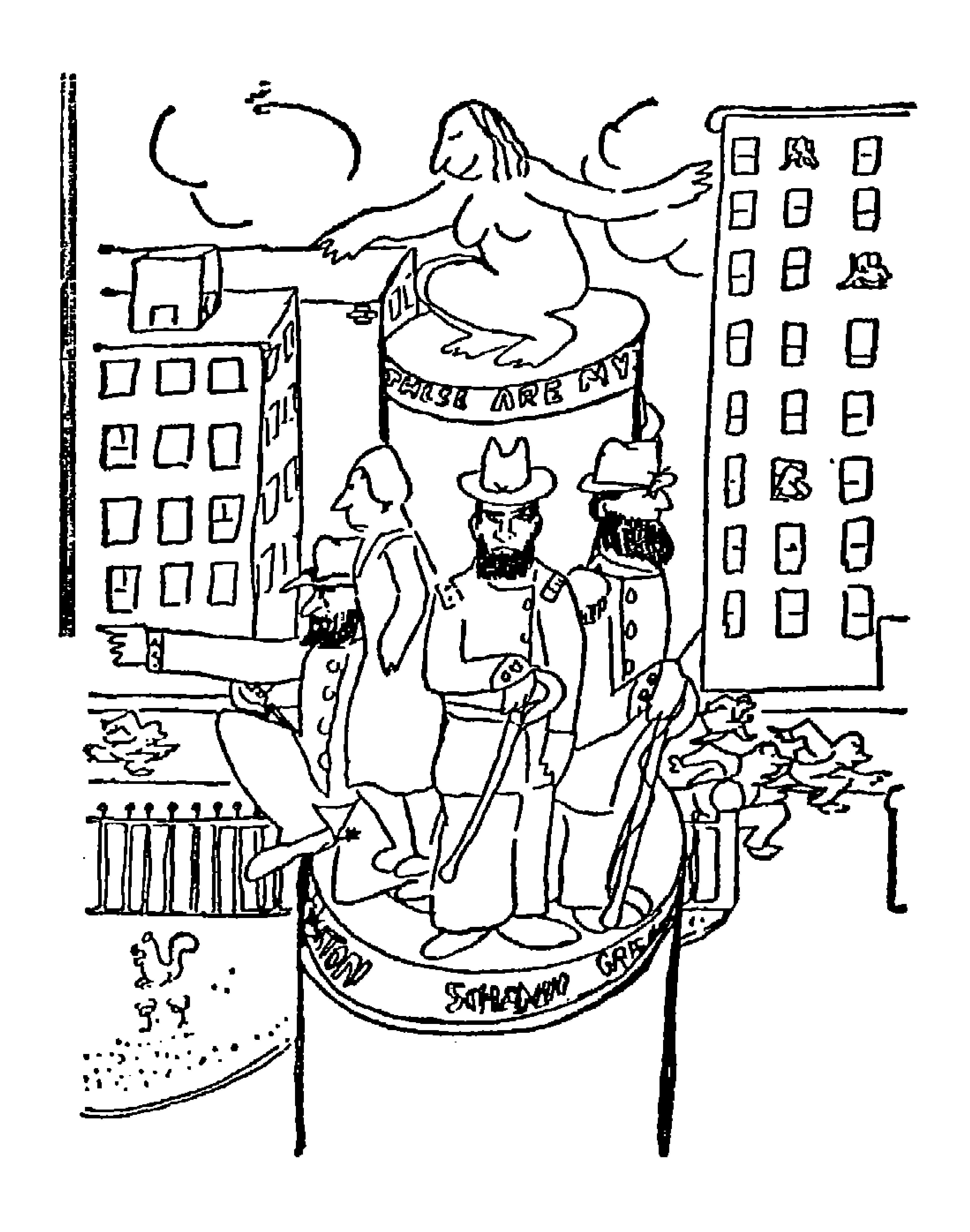
عشر ميلاً وتوقف بعضهم بعد ان جروا ثمانية اميال بينما الغالبية لم تقطع سوى اربعة اميال اذ انهكها التعب فصعدت الأشجار في متنزه فرنكلين . ولم يرجع النظام الى نصابه الا بعد ان دار العسكر في السيارات يصيحون بمكبرات الصوت « ما انهار السد » ولكن بعضهم سمعها في البداية « انهار السد ! » وكان ذلك عندهم بلاغاً رسمياً فزاد الفزع والاضطراب .

وكانت الشمس طوال الوقت ساطعة ولم تبد أية علامة تنبىء باقتراب المياه الدافقة . ولو أن زائراً مرّ من فوق المدينة بالطائرة ورأى الجموع النافرة على الارض لما استطاع ان يجد لتلك الظاهرة سبباً او علة . وأغلب الظن ان ذلك المنظر كان سيترك في نفس الرائي نوعاً غريباً من الفزع كمنظر السفينة « ماري سلست » وقد هجرها الركاب والملاحون واضطرمت فيها النيران تلتهم ألواحها الساكنة في وضح النهار المشمس .

وكانت خالتي ايدث تايلر ذلك اليوم في السينما ، واخذ وقع الاقدام يقوى ويشتد حتى طغى على صوت البيانو . وكان يجلس على مقربة من خالتي رجل متقدم في السن فتمتم شيئاً وخرج راكضاً فأفزع ذلك كل من كان في القاعة وسرعان ما غصت الممرات بالجماهير . وكانت بين الجموع امرأة تخشى

دائماً ان تموت محترقة في احدى دور السينما فصاحت « حريق ! »
غير ان الصيحات في الخارج كانت اقوى من صوتها . وصاح
شخص « انهار السد ! » فصاحت امرأة كانت امام خالتي
« شرقوا ! » واتجهوا الى الشرق وهم يتدافعون بالأيدي
والمناكب والأجساد فيطرحون النساء والاطفال ارضاً دون
ان يحسوا او يتلفتوا . واخيراً وصلوا الى الشارع منهوكي
القوى ممزقي الثياب . بينما استمر عازف البيانو في الفيلم يعزف
مقطوعات صاخبة وان لم يستمع الى عزفه احد . وفي الخارج
كان الناس يصرخون ويصعدون الأشجار وصعدت امرأة
التمثال المسمى « هذه جواهري » الذي كانت تماثيل شيرمان
وستانتون وغرانت وشريدان المركبة عليه تنظر دون اكتراث
الى عاصمة الولاية وهي تتمزق .

وكتبت الي خالتي بعد ذلك تصف الحادث : « اخذت
اجري في شارع يتجه جنوباً ثم اتجهت الى الشرق وعدت
بعدئذ الى الجنوب لأتجه مرة اخرى الى الشرق . ومرت بي
امرأة طويلة القامة مقطبة الجبين . وكنت ما زلت لم أعرف
ماذا حدث رغم كل الصياح والصراخ . فركضت حتى لحقت
بالمرأة بعد لأي . فهي وان كانت قد بلغت الخمسين فانها ما
زالت قوية البنية وفي حالة تسمح لها بالجري . سألتها : « ما



·وصعدت امرأة التمثال المسمى « هذه جواهري »

الخبر؟ » ولكنها أسرعت وقالت: «لا تسأليني! اسألي ربك».

«وعندما وصلت شارع غرانت كان التعب قد أنهكني حتى ان الدكتور هـ.د. مالوري فاتني (لعلك تذكر الدكتور مالوري ، ذلك الشخص ذو اللحية البيضاء الذي يشبه روبرت براوننغ) ، وكنت قد مررت بالدكتور مالوري في الطريق وخلفته ورائي بمراحل . ولما أصبح بجانبي صاح : « لحقتنا !» ومع انني لم أعرف ما الذي لحقنا فقد أيقنت أنه لحق بنا قطعاً ، فأنت تعلم مدى ما تحمله عبارات الدكتور مالوري من التأكيد . لم أفهم وقتئذ ما الذي عناه الدكتور ولكني فهمت فيما بعد . فقد كان خلفنا صبي يجري على زلاجات فظن الدكتور ان الذي يسمعه هو صوت المياه . واخيرا تلاشى الدكتور وهوى من التعب الى الأرض طريحاً ينتظر سيل العرم أن يطويه في غياهب النسيان . ولم يلبث الصبي ان تعداه وعندها عرف الدكتور مم كان هارباً . ونظر وراءه الى الشارع فلم ير أثراً للسيل ومع ذلك فانه جلس بضع دقائق يستريح ثم هب يركض صوب الشرق . واخيراً أدركني عند شارع أهايو حيث جلسنا كلانا نستريح . وأستطيع القول بأن أكثر من سبعمائة شخص مروا بنا في تلك الدقيقة . والغريب في الأمر أن الناس جميعاً كانوا يجرون ولم يجد أحد

في نفسه من الشجاعة ما يمكنه من تشغيل سيارته والهرب بها. ولكني أذكر أن جميع السيارات كانت في تلك الأيام تــدار باليد . ولعل هذا هو السبب » .



صاح : « لحقتنا »

وفي اليوم التالي ذهب الناس الى أعمالهم كأن شيئاً لم يكن، ولكن لم يجرؤ احد على التندر بالحادث . وفي الحقيقة لم يكن احد يجرؤ على السخرية بانهيار السد الا بعد نحو عامين . وقد تجد اليوم ، بعد عشرين عاماً ، أناساً كالدكتور مالوري يقفلون افواههم كالمحار كلما ذكر ذلك « الزحف الاعظم » .

الليلة التي
دخل فيها الشبح

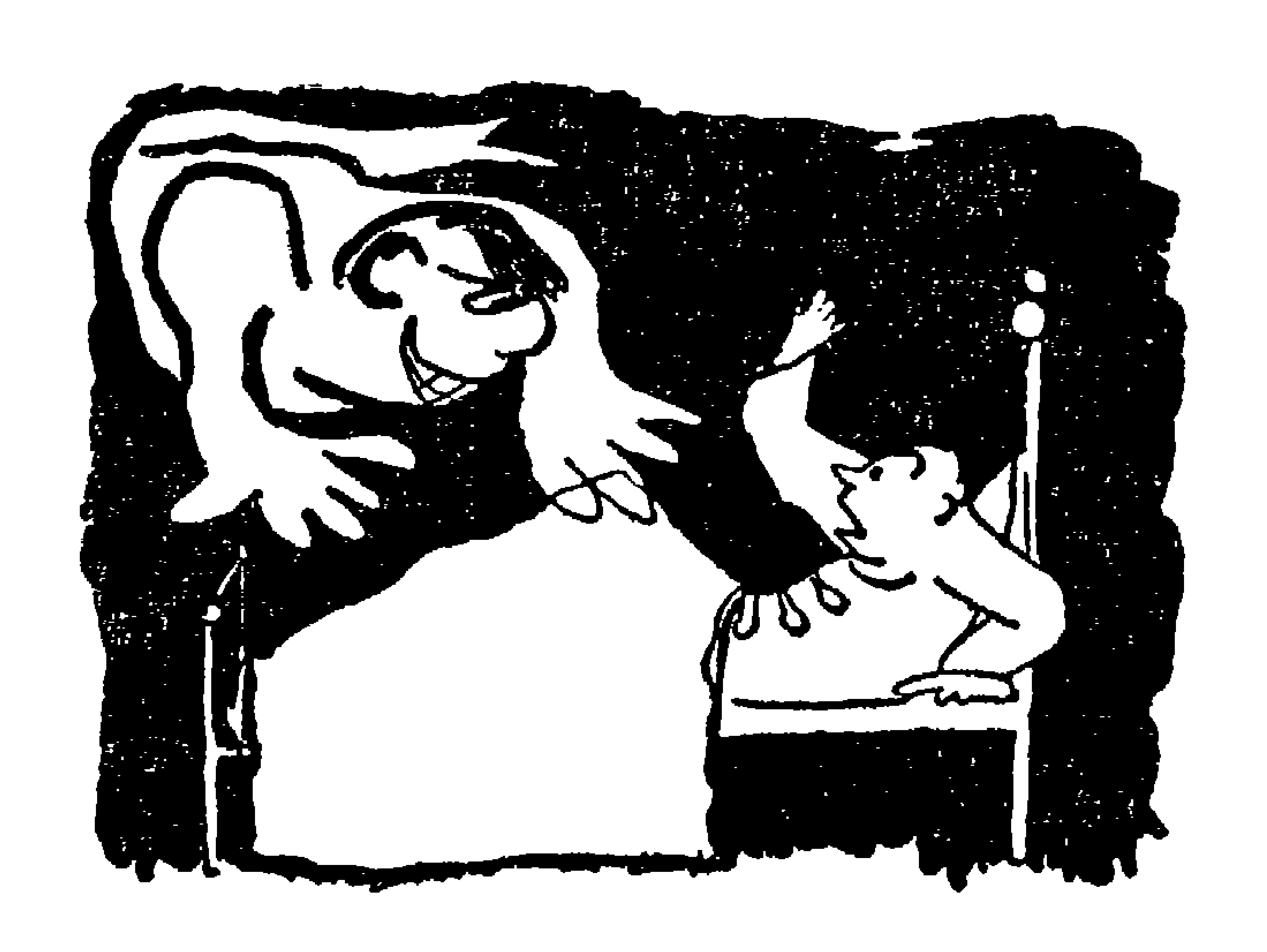
ان الشبح الذي دخل بيتنا ليلة السابع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩١٥ أحدث فيه من الالتباس والارتباك ما جعلني اتمنى لو تركته يمشي وذهبت الى فراشي ، فقد جعل مجيئه أمي تلقي فردة حذاء من الشباك على باب الجيران ودفع بجدي الى اطلاق النار على أحد رجال البوليس . ولذلك فانني آسف كما قلت ، لأنني أصغيت الى وقع قدميه .

في الساعة الواحدة والربع صباحاً سمعت وقع أقدام رتيباً سريعاً كأن شخصاً يدور حول المائدة في غرفة الطعام . وكانت أمي نائمة في غرفة في الطابق العلوي وأخي هيرمن في غرفة أخرى ، وكان جدي نائماً في الغرفة التي فوق الدرج على

السرير القديم الذي وقع مرة على أبي كما يذكر القارىء . كنت خارجاً من الحمام أفرك نفسي بالمنشفة فسمعت وقع اقـــدام . وكان وقع أقدام رجل يدور بسرعة حول المائدة في غرفـــة الطعام ، وكان النور المنبعث من الحمـــام يصل من الخلف الى غرفة الطعام ، فرأيت اللمعان الباهت المنبعث من الاطباق التي على الرف ولكني لم استطع ان أرى المائدة . وظلت الخطى تدور وتدور حول المائدة ، وكنت أسمع في فترات ثابتة لوحاً من الخشب يصر كلما وقعت عليه الاقدام . ظننت في بادىء الأمر ان الذي يمشي هو أخي روي أو أبي الذي كان قد ذهب الى انديانابولس ولكننا كنا ننتظر عودتـــه في ذلك اليوم . ثم بدا لي أنه لص ولكن لم يدر بخلدي – الا فيما بعد – ان ذلك الماشي هو شبح .

وبعد ان استمعت الى الخطى نحو ثلاث دقائق مشيت على رؤوس أصابعي الى غرفة أخي هيرمن وصفرت صفرة خافتة في الظلام وهززته حتى استيقظ . فعن عنة خافتـــة ككلب حزين يائس – كان دائماً يخشى ان يفاجئه شيء ما في الليل . قلت له من انا وان هناك شيئاً في الطـــابق الأرضي . فنهض وتبعني الى رأس الدرج الخلفي وأنصتنا سوية ولكننا لم نسمع شيئاً . لقد توقفت الخطى . ونظر الي هيرمن بشيء من الفزع

اذ لم يكن علي سوى منشفة الحمام أتزر بها . وأراد أن يعود الى سريره فشددته من ذراعه وقلت « هناك شيء ما في غرفة الطعام ». وعندها سمعنا وقع الخطى مرة أخرى تـدور حول المائدة كأن هناك رجلاً يجري ، ثم أخذت تصعد الدرج نحونا متثاقلة كل درجتين بخطوة واحدة . وكان النور الخافت المنبعث من الحمام ما زال يضيء الدرج ولكننا لم نر شيئاً ، وانما سمعنا وقع الخطى . فرجع هيرمن الى غرفته مسرعاً واقفل الباب ، وأقفلت انا الباب الذي عند رأس الدرج وركزتـه بركبتي . وبعد دقيقة فتحته ثانية ببطء وحذر ، ولكن لم يكن هنالك



كان دائماً يخشى ان يفاجئه شيء مـــا

أي شيء ، حتى وقع الخطى لم أسمعه ، ولم يسمع اي منا ذلك الشبح مرة اخرى .

واستيقظت أمي على اصطفاق الأبواب وأطلت برأسها من غرفتها وسألت : « ماذا تفعلون يا اولاد في هذه الساعة ؟ » . وعندها تشجع هيرمن وخرج من غرفته ، وكان لونه أخضر فاتحاً . قـــال بصوت اجش : « لا شيء » . وعادت أمي تسأل : « ولكن لماذا كنتم تجرون على الدرج الخلفي » . اذن لقد سمعت وقع الخطى ! لم نزد على ان نظرنا اليها. فصاحت : « في البيت لصوص ! » . وحاولت ان اهدئها فاتجهت صوب الدرج وناديت هيرمن ليتبعني ، وبـــدلا من ان يتبعني قال : «سأبقى مع امي لأنها مضطربة !» فرجعت الى قرص الدرج.

قالت أمي : « لا تتحركا خطوة واحـــدة . سنستدعي البوليس » . ولكن التلفون كان في الطابق الارضي ولم أعرف كيف سنستدعي رجال البوليس ـ ولم أكن أريد استدعاءهم ـ ولكن أمي اتخذت ، على عادتها ، قراراً سريعاً لا مثيل له . وفتحت باب نافذتها التي تواجه غرفـة النوم في بيت جيراننـا وتناولت حذاء وقذفت بـه صوبهم فكسر زجاج نافذتهم . وكان يسكن في البيت فنان اسمه بودول وزوجته . وكان

بودول منذ سنوات مضعضعاً يعـاني من نوبات تصيبه بين حين وآخر — أغلب الناس الذين عرفناهم أوجاورناهم كانوا يعانون من نوع أو آخر من النوبات .

كانت الساعة قد بلغت الثانية صباحاً ، وكانت ليلة مظلمة لا قمر فيها ، وكانت الغيوم كثيفة سوداء . ووقف بودول امام النافذة يصيح ويزبد ويلوح بقبضته . وسمعت زوجته تقول : «سنبيع البيت ونعود الى بيوريا» . وبعد برهة صاحت أمي : « لصوص ! » ، وتبعها هيرمن يصيح « لصوص في البيت » . لم نجرؤ أنا وهيرمن ان نوضح لها ان الذين كانوا في البيت اشباح لا لصوص فقد كان خوفها من الأشباح أشد من خوفها من اللصوص وظن بودول باديء الأمر أنها تعني ان اللصوص في بيته هو ، ولكنه هدأ اخيراً واستدعى البوليس لنا بجهاز التلفون الذي كان الى جانب سريره. وبعد ان غاب الرجل أرادت أمي ان تقذف بفردة حذاء أخرى من النافذة لا لأن الأمر كان يستدعي ذلك وانما ، كما قالت لنا بعـد ذلك ، لأن القاء الحـــذاء على زجاج النافذة قد راق لها كثيراً . لقد منعتها من القاء الفردة الأخرى .

وجاء رجال البوليس بسرعة فائقة ، فقـد وصلت سيارة

فورد مليئة بهم وجاء اثنان على دراجة نارية كما جاءت سيارة داورية تقــل ثمانية وبعض مراسلي الصحف . وبــدأ الجميع يدقون باب بيتنا وأضاءت المصابيح الكاشفة الساحة التي أمام البيت والشارع وجدران بيتنا وبيت بودول . وصاح صوت : « افتحوا نحن رجـــال البوليس ! » وأردت ان انزل وأفتح الباب لهم ما داموا قد جاءوا ولكن أمي رفضت بحجة انني لا البس شيئاً وقد يلفحني الهواء وأمرض . وأخيراً وضع رجال البوليس اكتافهم على الباب الأمامي ودفعـوه فانفتح وسمعت الخشب يتكسر والزجاج يقع على الارض . وملأت اضواؤهم غرفة الجلوس وتقاطعت الأشعة المنبعثة من المصابيح في غرفة الطعام ثم انطلقوا في الممرات فالقسم الخلفي من البيت حتى وجدوني في أعلى الدرج متزراً بالمنشفة . وسألني أحدهم : « من أنت ؟ » فاجبته « انا اسكن هنا» . ثم سألني مرة أخرى : «ماذا بك، هل تشعر بالحر ؟». كنت في الحقيقة أشعر بالبرد، فذهبت الى غرفتي وارتديت ملابسي . وعندما هممت بالخروج دفع أحد رجال البوليس بندقيته فياضلاعي وصاح : « ماذا تفعل هنا ؟ » أجبت : « أنا أسكن هنا » .

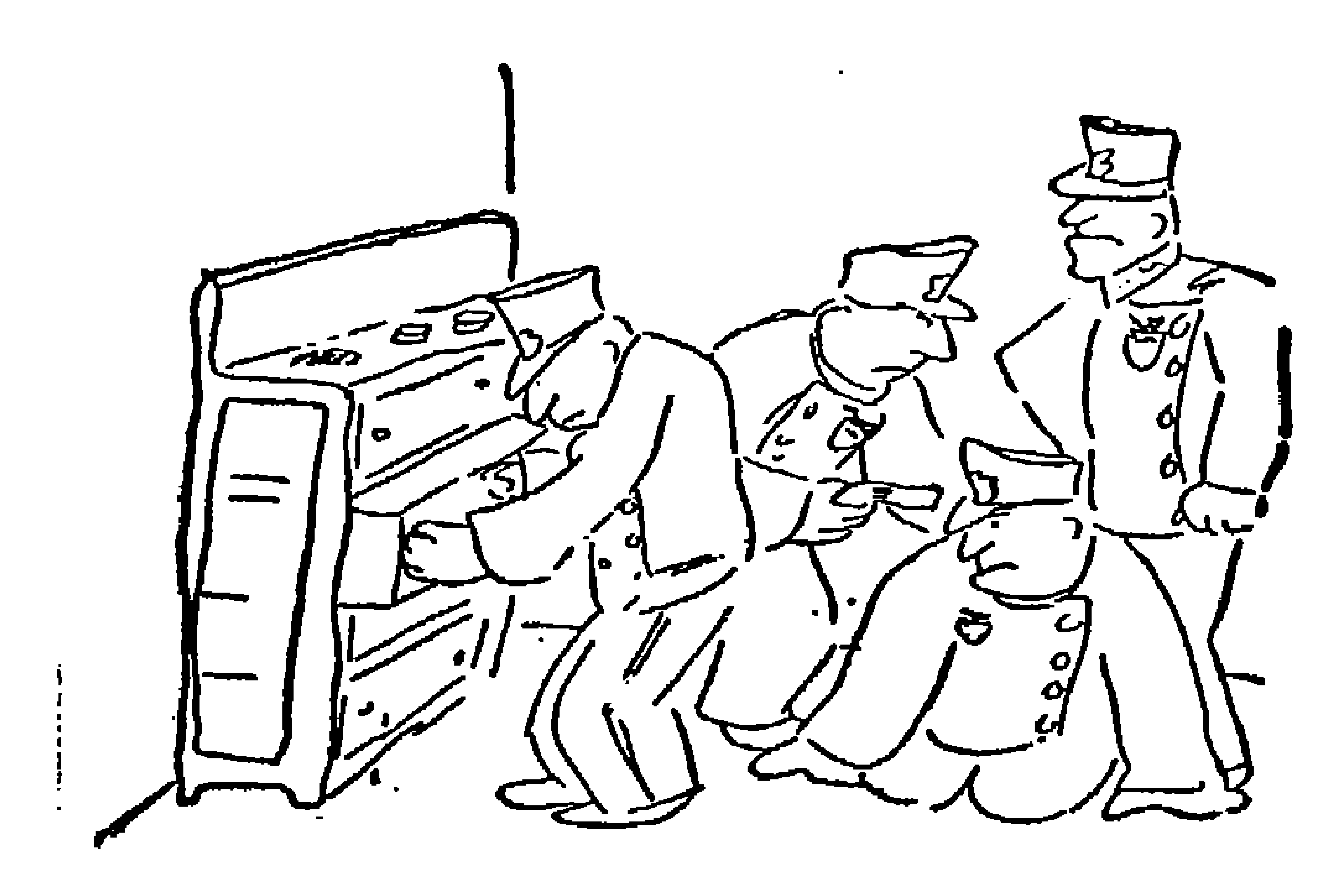
وذهب الضابط المسؤول الى امي وقال لها : « لا احد في البيت . لا شك ان اللص هرب . هل تعرفين ما شكله ؟ »

فأجابت : « كان اكثر من لص ، لعلهم اثنان او ثلاثة ، وكانوا يصفقون الأبواب » . ورد الضابط : « شيء غريب ! كل النوافذ والأبواب في بيتكم مقفلة من الداخل » .

وفي الطابق السفلي كان رجال البوليس يروحون ويجيئون. لقد كان البيت مليئاً بالبوليس ، وكانوا يفتحون الأبواب بعنف ، ويسحبون الأدراج بعنف ، ويدفعون النوافذ ، ويبعثرون قطع الأثاث كيفما اتفق . وظهرت جماعة منهم من الممر المظلم في الطابق العلوي وأخذ أفرادها يزيحون كل ما كان على الأرض ، وكنت تسمع الأسرة تزاح ، وترى الملابس تقلع من العلاقات والمشاجب ، والصناديق والحقائب تسقط الى الأرض . ووجد احدهم قيثارة قديمة كان اخي روي قد ربحها في احدى المباريات ، فحملها وقال : « انظر يا جو » فتناولها الشرطي المدعو جو وسألني « ما هذا » ، فقلت له انها قيثارة اعتاد خنزيرنا الهندي النوم عليها . والحقيقة انه كان لدينا فعلاً خنزير يأبى النوم الا على القيثارة ولكن ما كان يجب ان اقول ذلك للشرطي ، فقد نظر الي جو والشرطي الآخر برهة ثم ارجعاها الى مكانها .

قال الشرطي الذي كلم امي في البداية : « لا احد في

البيت . هذا (واشار باصبعه الي موجهاً خطابـه للآخرين) كان عريانا . يبدو أن السيدة فقدت السيطرة على اعصابها » . فهزوا جميعاً رؤوسهم بالموافقة ولكن لم يقل واحد منهم شيئاً . وفي لحظة قصيرة ساد فيها الصمت سمعنا صريراً في الغرفة التي فوق الدرج . كان جدي يتقلب في السرير . وسأل جو : «ما هذا ؟ » . وفي الوقت نفسه انطلق خمسة او ستـة من رجال البوليس صوب الغرفـة قبل ان اتمكـــن من ايقافهم وشرح الموضوع لهم . كان جـدي في تلك الآونة يعتقـــد ان رجال الجنرال ميد أخذوا يتقهقرون ويفرون تحت وطـأة ضربات ستونوول جاكسون .



لقد كان البيت مليئاً بالبوليس

وعندما وصلت الى الغرفة كانت الأمور قـــد اضطربت وارتبكت الى حد لا مجال عنـده للشرح أو الايضاح . وكان من الجلي أن اول ما خطر ببال جـدي أنهم من الفارين من جيش الجنرال ميد وانهم يريدون الاختفاء في غرفته . فما كان منه الا ان انتفض من سريره وهو يرتدي قميصـاً للنوم فوق سروال طويل وعلى رأسه طاقية وحول صدره سترة من الجلد. ولا شك ان رجال البوليس أدركوا لتوهم أن هـــذا الشيخ الأشيب من أهل البيت ولكن لم تتح لهم فرصة للاعـــتراف بهذه الحقيقة لان جدي اذ انتفض من السرير صرخ فيهم قائلاً: « ارجعوا ايها الكلاب الجبناء ! ارجعوا الى مراكزكم ايتهـــا الحيوانات الرعديدة ! » . ثم أمسك بالشرطي الذي وجـــد القيثارة وصفعه صفعة كادت توقعه فاندفع صوب الباب وتراجع الآخرون ، ولكن جدي كان أسرع منهم فقد انتزع بندقية صاحب القيثارة وضغط الزناد ، وبدا كأن الدوي قـد حطم الواح الخشب وامتلأت الغرفة بالدخان . وصرخ شرطي يسب ويلعن اذ امتدت يده الى كتفه . واخـيراً نزلنا الى الطابق السفلي بعد ان اغلقنا باب الغرفـة على الشيخ . اطلق النار في الظلام مرتين او ثلاثاً ثم أوى الى سريره . وقلت لجـــو وأنا الهث : « هذا جدي ! انه يظنكم فارين من الجيش » . ورد جو : « أصـدق ذلك ! » .

لقد عز على رجال البوليس ان يتركـــوا البيت دون ان يلقوا القبض على شخص غير جدي ، فقد منوا تلك الليلة بالخيبة التامة . وأخذوا يتفحصون البيت مرة اخرى . وجاء أحـد مراسلي الصحف الي ـ وكان رجلاً صغير الوجه نحيل الجسم — يسألني : « ما الذي حدث هنا بالضبط ؟ » فأجبته : « لقد زارتنا الأشباح » . فحملق في طويـلا كأنني آلة الحـظ القى فيها قطعة من النقود وراح ينتظر ما يسقط منها وهو يعلم انه خاسر ، ثم سار في طريقه . وبعدئذ تبعـه رجال البوليس ، وكان الشرطي الذي أطلق جدي عليه النار يسب ويلعن وقد ضمدت جراحه . وقال صاحب القيثارة : « سأحضر بندقيتي من العجوز » . فأخبرتـه انني سأحضرها الى المركز في اليـوم التالي .

وبعد ان ذهب رجال البوليس سألت أمي « ماذا حدث لذلك الشرطي ؟ » فقلت لها : « اطلق عليه جدي النار » . وعادت تسأل : «ولماذا ؟» فأخبرتها أنه ظنه فاراً من الجيش ، وكان تعليقها : « لماذا هو من دونهم ؟ انه شاب وسيم » .

وفي الصباح جلس جـدي معنا لتناول الفطور ، وكان ناضراً كزهرة الأقحوان، فألقى عدداً من النكت أضحكتنا.

وظنناه نسي كل ما حدث بالأمس ولكنه في الواقع لم ينس ، فبعد ان تناول كوباً ثالثــاً من القهوة حملـق في هيرمن ثم فيّ وسأل : « لماذا كان رجال البوليس يعيشون في البيت ليـــلة امس ؟ » فماذا نقول ؟

مزعجات أخرى في الليل

كلما رجعت بالذاكرة الى ايام شبابي تبـادرت الى الذهن تلك الليلة التي « هدد أبي فيها ان يمسك باك » . وهـذا ، كما سيرى القارىء ، ليس وصفاً دقيقاً ولا أميناً لما حدث فعلاً في تلك الليلة ولكننا اعتدنا أن نلمح الى الحادث كلمـا تذكرناه على هذا النحو .

كنا نسكن في بيت قديم في مدينة كولومبس بولاية أوهايو. وكولومبس هي التي تغلبت على لانكاستر في أوائل القرن التـاسع عشر بصوت واحد وأصبحت بذلك عاصمة الولاية . ومنـذ ذلك الحين وهي تتوهم أنها ملاحقة وهو شعور بلديّ غريب يؤثر بطريقة او أخرى في كل من يسكنها . وهي مدينة

يمكن ان يحدث فيها أي شيء ، او هي المدينة التي حدث فيها كل شيء تقريباً .

كان أبي نائماً في الغرفة الأمامية من الطابق الثـاني ، وهي الغرفة المجاورة لغرفة أخي روي الذي كان عندئذ في السادسة عشرة من عمره . وكان أبي يأوي الى فراشه عادة في التاسعة والنصف ويستيقظ في العاشرة والنصف ليحتج بشدة علينـا نحن أبناءه الثلاثة اذ ندير اسطوانة اعتدنا الاستماع اليها مرات ومرات حتى اتسعت خطوطها وأصبحت الابرة تدور في خط واحد فتتكرر العبـارة دون انقطاع ولعل التكرار هو الذي كان يوقظ أبي .

وفي الليلة التي ذكرتهـا ذهبنا كلنـــا الى الفراش في وقت واحد دون ضجة . وكان روي قد انتابته أثناء النهـار حمى خفيفة فقضى اليوم في السرير . ولم تكن الحمى قوية الى درجة تجعله يهذي ، ولعله كان آخر من يهذي في العالم . ومع ذلك فقد حذر أبانا عند ذهابه الى غرفته من أنه قد تصيبه نوبـة من الهذيان .

وفي حوالي الساعة الثالثة صباحاً كان روي ما زال مستيقظاً فتظاهر بأن الحمى عاودته وانتابه الهذيان لا لشيء الا ، كما قال

لنا فيما بعد ، من أجل المزاح . فترك سريره وذهب الى غرفة أبي وهزه قائلاً « باك ، لقد حلت ساعتك ! » بالطبع لم يكن اسم ابي باك وانما تشارلز ، ولم يسمه أحد في يوم من الأيام بهذا الاسم . كان رجلاً طويلاً مسالماً أميل الى حدة الطبع ، وكان لا يميل الا الى المتع التي تأتي بهدوء ويود أن يتم كل شيء من حوله دون ازعاج . فغمغم فزعاً « ماذا تقول ؟ » فقال اخي ببرود « انهض يا باك » . واذ رأى أبي في عينيه بريقاً خاصاً قفز عن سريره الى الجانب الآخر وانطلق راكضاً من الغرفة بعد ان اقفل الباب وراءه ، وراح يصرخ وينادي من في البيت حتى استيقظنا جميعنا .

لم يكن سهلاً علينا ان نقتنع بأن روي الهادىء المنطوي على نفسه يهدد أباه بمثل ما ادعى أنه هدده به . أما أخي هيرمن فقد عاد الى سريره دون أي تعليق . وأما أمي فقالت : « لقد رأيت حلماً مزعجاً » . فاغتاظ أبي وقال : « قلت لك انه دعاني باك وهددني بأن ساعتي حلت » . وذهبنا الى غرفته وفتحنا الباب ومشينا منها على رؤوس أصابعنا الى غرفة روي فوجدناه في سريره مستغرقاً في النوم . وكان واضحاً أنه لم يكن يعاني من نوبة حمى . فرشقت أمي أبي بنظرة حملت من التأنيب ما حملت . وهمس أبي قائلاً « لقد

حدث كل ما ذكرته » .

ويبدو أن وجودنا في الغرفة أيقظ روي آخر الامر فدهش وانزعج (او تظاهر بذلك كما علمنا بعد مدة طويلة) ، وسأل « ما المسألة ؟ » . فأجابت أمي « لا شيء ، أبوك رأى حلماً مزعجاً » . ورد أبي بحزم وبطء : « لم أرَ حلماً مزعجاً » . وكان يلبس رداء قديم الطراز مفتوحاً بعض الشيء من جانبه فبدا غريباً عليه بجسمه الطويل النحيف . وقبل ان ننسى الموضوع ويذهب كل منا الى سريره تعقد الموقف كما كان يتعقد كل موقف مماثل في بيتنا ، بدلاً من ان يُسوّى وينتهي . أصرّ روي ان يعرف ماذا حدث فروت له امي باقتضاب ما قاله لها أبي . وعندها لمعت عينـا روي وقال : « يبدو أن أبي روى الحكاية بالعكس ، فقـد سمعته يقول سأتدبر المسألة . باك موجود في الطـابق الاول » . فسـألت امي أبي « ومن باك هذا ؟ » . فاغتـاظ وقال : « لا أعرف شخصاً بهذا الاسم ، ولم أقل ذلك . لم أكن أحلم » . وبالطبع لم يصدقه أحد منا (سوى روي) . وكان عندما بلغ الامر الى هذا الحد قد تأثر كثيراً وغضب فوقف أمـام المرآة يمشط شعره ، وكان دائماً يهدأ اذا مشط شعره . ثم قالت امي :« عار على شخص كبير ان يوقظ ولداً مريضاً من نومه لأنه (الرجل الكبير الذي هو

أبي) استلقى على ظهره ورأى حلماً مزعجاً » . وفي الحقيقة كان معروفاً عن أبي أنه يرى أحلاماً مزعجة اذ كان يرى في نومه أن ليليان راسل المغنية والرئيس كليفلاند يلاحقانه .

بحثنا في الموضوع نحو نصف ساعة وبعدها سمعت امي لأبي بأن ينام في غرفتها وقالت اذ أقفلت باب غرفتها : « تستطيعون ان تناموا الآن باطمئنان يا أولاد » . ومضت ساعة كنت أسمع أبي خلالها يشكو ويتذمر فتجيبه امي من حين لآخر بكلمة قصيرة تعبر بها عن شكها فيما يقول .

وبعد حوالي ستة أشهر مرت بأبي تجربة مماثلة معي . كان في ذلك الوقت ينام في الغرفة المجاورة لغرفتي . وكنت طوال اليوم أحاول ان أذكر اسم مدينة بيرث أمبوي فلم أستطع . يبدو أنه من السهل تذكر هذا الاسم في الوقت الحاضر ولكن لم يكن تذكره سهلاً عليّ في ذلك الوقت ، فقد ذكرت أسماء معظم المدن المكونة من كلمتين ، ولم تكن بيرث أمبوي من بينها ، ثم أخذت تخطر لي الكلمات الانجليزية المركبة الا اسم تلك المدينة او حتى ما هو قريب منه .

وظل هذا الاسم يلح على ذهني فلم أستطع النوم، واستسلمت لتخيلات عجيبة شتى وأنا راقد في سريري والغرفة مظلمة من

حولي . وتراءى لي أنه ليس هناك مدينة بهذا الاسم ولا ولاية اسمها نيوجيرزي . ورحت أكرر « جيرزي... جيرزي... » حتى اصبحت الكلمة لا تعني شيئـاً او لم أعد أعرف علاقتهـا بالواقع . ولا شك انك تدرك حالة الارتباك الذهني التي تصيب المرء عندئذ اذا كنت قد أرقت مرة وأخذت تردد شيئاً واحداً آلاف او ملايين المرات او مئـات الملايين من المرات . وبينما أنا غارق في هذه الافكار تملكني الفزع اذ بدا لي ان الانسان قد يصاب بالجنون وهو يحـاول تذكر اسم مثل ... ومرة اخرى أخذت تتداعى في ذهني الأسماء والكلمـات المركبـة دون ترابط حتى وصلت الى جان دارك وقوس النصر والروح القدس ... وبدأت أشعر بحاجة شديدة الى الناس فقد أخذتني التخيلات كل مأخذ وسيطر علي رعب شديد ، واصبحت اشعر بأنني سأصاب بالجنون إن لم أذكر اسم تلك المدينـة . فقمت من سريري وذهبت الى غرفة أبي الذي كان ما زال نائمـاً فهززته فغمغم « ما هذا ؟ » . وهززته هزاً أعنف حتى استيقظ وكأنه في حلم وعلامات الخوف بادية في عينيه . قـال بصوت أجش « ما المسألة ؟ » . ويبدو انه كان في عيني بريق غريب وشعري مهدل منفوش ، ممـا جعل ابي يجلس على النـاحية الاخرى من السرير مستعداً ليقفز بعيـداً عني اذا اضطر الى ذلك . ولا بد انه جال في ذهنه في تلك اللحظة أن أبنـاءه

الثلاثة كانوا مجـانين او على وشك الجنون . وأنا اليوم أتبـين ذلك وان لم أدركه في تلك اللحظة ، فقد نسيت حادثة روي ولم يتبادر الى ذهني أن هيئتي كانت ليلتئذ كهيئته يوم دعا ابي باك وقال له ان ساعته قد حلت . قلت له (اي لأبي) « انصت! اذكر بعض مدن نيوجيرزي بسرعة ! » . وكانت الساعة قد قاربت الثالثة صباحاً ، فنهض ابي مبقياً السرير بيني وبينـه وبدأ يلبس سراويله . فقلت له « لا داعي لأن تلبس ثيابك . كل مـا أريده هو ان تذكر بعض مدن نيوجيرزي » . وبينما أخذ يلبس ملابسه بسرعة — أذكر انه لبس حذاءه دون جوارب — مضى يذكر بعض المدن بصوت مرتجف . وأنا الآن أراه وهو يمد يده ليتنـاول سترته دون ان يحول نظره عني ويقول « نيوارك ، جيرزي سيتي، اتلانتيك سيتي، اليزابيث، باترسن ، ترنتن ، جيرزي سيتي ، ترنتن ، باترسن ... — » . قلت : « اريد مدينة لها اسمين » فقال « اليزابيث وباترسن » . فقاطعته قائلاً بشيء من الضيق : « لا ! لا ! هذه مدن باسم واحد ، اريد مدينة اسمهـا من كلمتين ، مثل شذر مذر » فقال مستغرباً « شذر مذر » واندفع بكل قوته صوب الباب ملتفتاً خلفه واضعاً على وجهه ابتسامة صفراء أفهم الآن — وهو ما لم أفهمه ساعتها — انه كان يقصد بها ملاطفتي ريثما يخرج . وما ان اصبح على بضع خطوات من الباب حتى قفز دون ان

يربط سيور حذائه او يسوي ملابسه . ودهشت لكيفية خروجه اذ لم يدر بخلدي انه كان يظنني جننت لأنني كنت أظن أنه هو الذي فارق عقله . ركضت خلفه وأدركته على باب غرفة امي فأمسكت به لكي أحدثه بالمنطق . وهززته قليلاً ليتكامل صحوه ، ولكنه مضى يصيح « يا ماري ! يا هيرمن » فأخذت أنا ايضاً أنادي امي واخوتي . وفتحت امي الباب على عجل لترانا الساعة الثالثة والنصف صباحاً متماسكين ونصيح : أبي يرتدي نصف ملابسه دون جوارب او قميص وأنا بثياب النوم .

فرقتنا أمي وهي عابسة الوجه وسألت « والآن ، ماذا جرى لكما ؟ » (كانت امي لحسن الحظ تستطيع تدبر أي اثنين منا ولم تفزع مرة لقول أي فرد من الأسرة أو تصرفه) فأجاب أبي « إعتني بجيمي ! » (كان دائماً يدعوني جيمي اذا كان مضطرباً) . فنظرت امي الي وسألت : « ماذا جرى لأبيك ؟ » ونظر أبي بدوره إلي وأخذ كل منا ينظر الى الآخر ولكننا كنا قد هدأنا قليلاً .

وشرح ابي الموضوع قائلاً : « كان يثرثر عن نيو جيرزي في هذه الساعة . دخل علي وطلب ان أذكر له بعض مدن

نيوجيرزي » .

نظرت امي الي فاوضحت لها انني سألته عن اسم مدينــة أردت تذكره فأصابني الأرق لأنني لم استطع . فقالت له امي بلهجة المنتصرة ودون ان تنظر اليه «أترى ؟ ليذهب كل منكما الى غرفته فلا اريد ان اسمع منكما مزيداً من الهذر هــذه الليلة . ألا تخجلان من احداث كل هذا الازعاج في مثل هذه الساعة ؟! » . وبذلك عادت الى غرفتها واغلقت البــــاب ، وذهب كل منا الى سريره . وقبل ان انام سألني أبي « هل انت بخير ؟» فرددت «يجب ان أسألك ذلك انت !» . قال «تصبح على خير » . فاجبته « تصبح على خير » .

لم تسمح لنــا امي ببحث الموضوع في صبــاح اليوم التالي ونحن نتناول فطورنا ، فقد سأل هيرمن ماذا جرى وأجابته أمي « لنبحث موضوعاً افضل » .

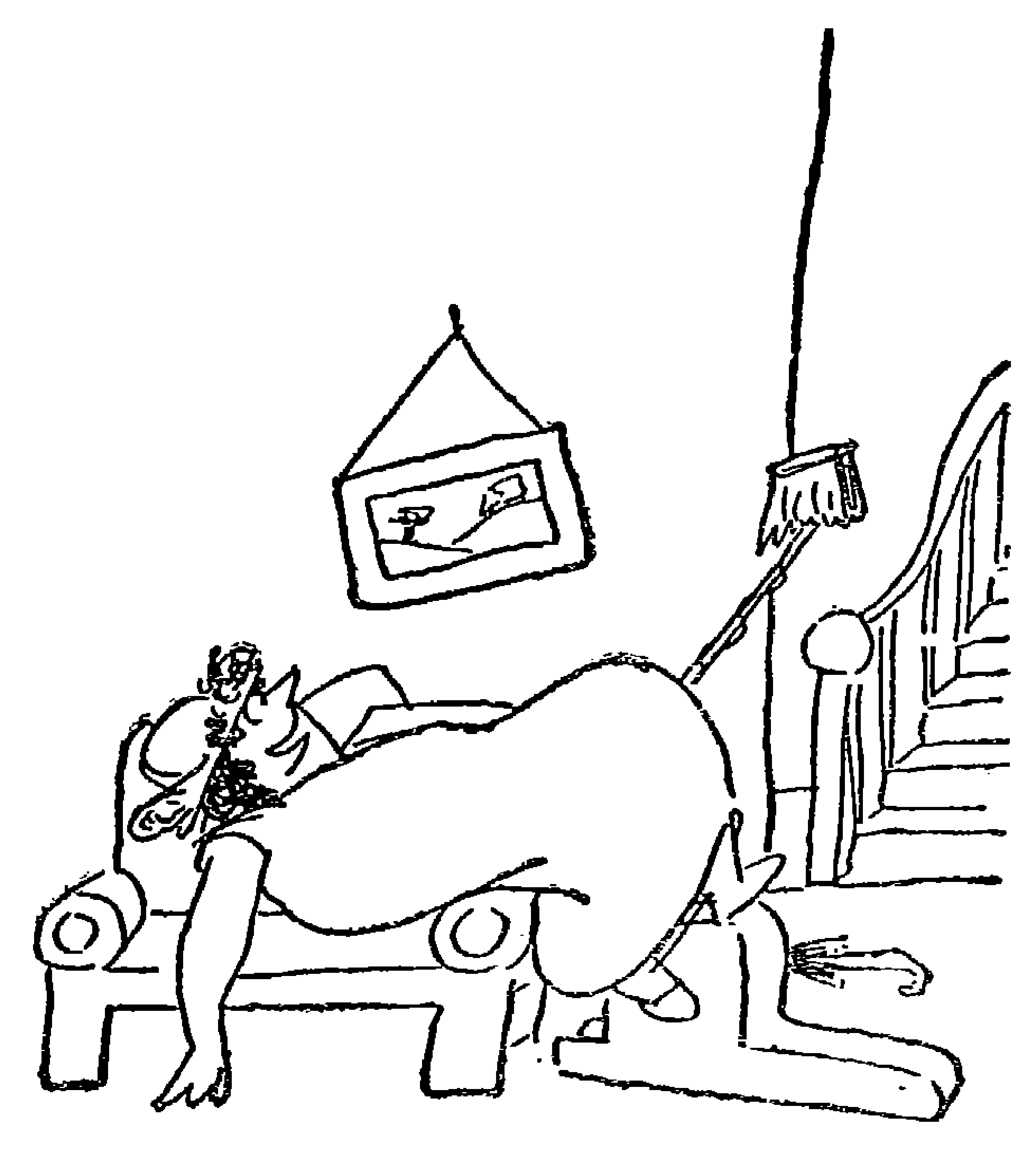
بَعضُ مشكلاتِ الخَدَم



عندما أتذكر العدد الكبير من الخادمات اللاتي استأجرتهن امي خلال السنوات التي عشتها في البيت أذكر بوضوح عشراً او اثنتي عشرة منهن (يبلغ عددهن في الواقع مـائة واثنتين وستين، ولكن قليلاً منهن يستحق ان يذكر) . ومن الخالدات منهن دورا غِدّ البنت الصغيرة الهـادئة (كان عمرهـا اثنين وثلاثين عاماً) التي أطلقت النار على شخص في غرفتها فأحدثت في بيتنـا ضجة لا تعدلهـا الا الضجة التي حدثت ليلة دخول الشبح . لم يعرف احد كيف دخل عشيقها البيت، وهو عامل مرأب للسيارات فظ الطبع نكد المزاج ، ولكن كل النـاس في الحي يعرفون كيف خرج . كانت دورا قد لبست فستاناً للسهرة من اجل هذه المنـاسبة وازدانت بكثير من الحلى التي

كان بعضهـــا من حلى امي . وظلت ، بعد ان أطلقت عليه النار ، تصرخ ببعض عبارات من شيكسبير — لقد غابت عن ذاكرتي — ومضت تلاحق الرجل وهو نازل من غرفتهـا على قرص الدرج . وعندما وصل الطابق الثاني اندفع داخل غرفة ابي ، وكان دخوله — لا اطلاق النار او صراخ الخادمة — هو الذي أيقظ ابي لأنه متى نام استغرق في نوم عميق . وصـــاح الجني عليه « اخرجني من هنا ! » . وسرعان ما تطور الموقف الى واحد من تلك المواقف الغريبة التي لا بد لي من ان أعترف أن أسرتي كانت دائماً بارعة في خلقها . وعنـــدما حضر رجال البوليس كانت دورا تطلق النار على مصابيح الغـــاز في غرفة الجلوس ، وكان صديقها قد ولى الأدبار .

وكان هناك أخريات ومنهن غيرتي ستروب وهي فتـــاة ضخمة حمراء مرحة ، كانت تجمع زجاجات الويسكي (عرفنا ذلك عنها بعد ان غادرتنا) . وقد رجعت ذات ليلة الى البيت من حفلة راقصة بعد الثـــانية صباحاً ، فأيقظتنا باصطدامها بالأثاث ووقوعها فوقه. ولما صاحت امي من فوق « مَن هناك » أجابت « أنا يا عزيزتي . أنا غيرتي ستروب » . وعـــادت امي تسأل « ماذا تفعلين ? » فأجابت غيرتي « أنفض الغبـــار عن الأثاث » .



فأجابت غيرتي: « أنفض الغبار عن الاثاث »

ومنهن أيضاً جوانيا كريمر التي كانت أثيرة لديّ . كانت امها تحب اسم جوانيتا حتى انهـا جعلت الشق الاول منه في اسماء بناتها جميعاً وأسماؤهن بالاضافة الى جوانيتـا : جوانيا وجوانهيلن ، وجوانغريس . وكانت جوانيا فتاة رفيعة عصبية المزاج تخشى دائماً من ان تنوّم تنويمـاً مغنـاطيسياً . ولم تكن مخاوفها غير ذات أساس لأنهـا كانت عرضة له . وقد حدث ذات ليلة أنها كانت في مسرح ب . ف . كيث ووضع رجل على المسرح تحت التنويم المغناطيسي فنامت جوانيا من بين الجمهور وارتمت في الممر وراحت تصوت كما يصوت الرجل النـائم على المسرح ، اذ قيل له انه اصبح ديكاً . وذات ليلة وقعت تحت تأثير التنويم المغنـــاطيسي وهي نائمة والبيت كله يخيم عليـه السكون لأن كل سكانه كانوا نياماً . لقد رأت في حلمها شخصاً نوّمها ثم ذهب دون ان يوقظهـا . ولكن لم نعرف نحن ذلك الا بعد ان استدعينا جراح البوليس – لم نجد أحداً غيره يقبل المجيء الى البيت في الساعة الثالثة صباحاً – وصفعهـــا بضع صفعات أعادتها الى اليقظة . وأخيراً اصبحت تصيبها الغيبوبة كلما سمعت صوت شيء يدور او رأت شيئاً يومض . وكان علينا ان ندعها وشأنها . وتذكرتهـا في الآونة الأخيرة عندما شاهدت فيلم « راسبوتين والامبراطورة » ورأيت المنظر الذي ينوّم فيــه ليونيل باريمور – في دور راسبوتين – ابن القيصر

بأن أخذ يبرم امام عينيه ساعة لماعة . فاذا حدث ان كانت جوانيا في السينما وشاهدت ذلك المنظر فلا شك ان التأثير انتقل اليها . ولكن يبدو انها لحسن الحظ لم تره والا لاضطر ليونيل باريمور الى ان يرتدي مرة اخرى مسوح راسبوتين (لا سمح الله) ويقطع الولايات المتحدة كلها ليوقظها ، ولكان في ذلك دعاية حسنة ولكنها متعبة .

وقبل ان انتقل الى فاشتي – نسيت اسمها الاخير – سأذكر لمحة عن احدى الخادمات البيض الاخريات (كانت فاشتي زنجية) . تلك هي بل غيدن . لقد امتازت بل بحادثة واحدة ولكنها لم تحدث من الضجة ما احدثته حادثة دورا غد باطلاقها النار ولا حالات نوم جوانيا المغناطيسي . وكل ما حدث ان بل حرقت اصبعها على عمد حرقاً بالغاً لتتأكد من ان المروّخ الذي اشترته بخمسين سنتاً عصر ذلك اليوم كان له مفعوله . وماذا في ذلك ؟ ألا يحق لها ان تتأكد من انها لم تبذر نقودها عبثاً ؟

لقد تبين لنا في النهاية ان فاشتي كانت تؤمن بالخرافات . كانت زنجية جذابة هادئة تستطيع دائماً العثور على ما تضيعه أمي . فقد حدث مرة ان ارادت امي ان تستعمل دبوساً جميلاً لديها فلم تجده . ولما سألت ماذا حل به قالت فاشتي

« سأفتش عنه » . وبعد نصف ساعة وجدتـه . فسألتها امي « ولكن اين كان ؟ » وكان جوابها « في فنـــاء الدار . لعل الكلب اخذه هناك » .

وكان لفاشتي عشيق زنجي شاب يعمل سائقـاً ، وكان اسمه تشارلي . ولكن زوج امها كان ايضاً يشتهيها . ونحن لم نر زوج امها هذا ولكنها وصفته بأنه رجل جذاب من ولاية جورجيا ولكنه كثير المتاعب ، وقالت انه تزوج امها ليكون قريباً منها هي . وصمم تشارلي على قتـــل زوج الام ولكننا اشرنا بالهرب الى مدينـــة اخرى . وكانت فاشتي تنفجر في نوبات من البكاء وتقسم أنها لن تتركنا . وهكذا كنا في فزع دائم لأنه لم يكن مستبعـداً ان يلتقى تشارلي وزوج الام في مطبخنا ويتقاتلا . وذات مرة ذهبت الى المطبخ في منتصف الليل لأعد فنجاناً من القهوة ، وكان تشارلي واقفاً عند النافذة ينظر الى الساحة الخلفية ، وكانت عينـــا فاشتي تدوران في محجريها . ثم قالت بصوت مليء بالألم « ها هو جاء ! هـــا هو جاء ! » ولكن زوج الام لم يأت قط .

وأخيراً جمع تشارلي سبعة وعشرين دولاراً ليأخـــذ فاشتي ويذهب بها بعيداً ، ولكنه ذات يوم اشترى بها مسدساً عيار ٢٢ ، مصدف المقبض ، وطلب من فاشتي ان تدله على مكان

اقامة امها وزوجها . ولكن فاشتي رجتـــه ألا يذهب الى هناك . ولما أصر اتضح أنه ليس لفاشتي زوج ام . وقد تركها تشارلي من اجل فتاة اخرى اسمها نانسي ولم يغفر لهـــا ان أزالت من حياته خطراً اصبح أهم عنده من فاشتي نفسهـــا . واذا سألت فاشتي بعدها عن زوج امها او عن تشارلي أجابتك بكبرياء وثقة « لم يعد اي منهما يضايقني » .

اما السيدة دودي فكانت امرأة ضخمة متوسطـــة السن متدينة . جاءت الى بيتنا وخرجت منـــه كالصاروخ . ففي الليلة الثانية من مجيئها أصيبت وهي تنظف الصحون بنوبة من الغضب الشديد اذ خطر لها ان أبي هو المسيح الدجال ومضت تطارده على الدرج الخلفي والأمامي . فقد كان جالساً في غرفة الجلوس يشرب فنجاناً من القهوة ، وفجأة اندفعت من المطبخ شارعة سكين الخبز . واخيرا أوقفها أخي هيرمن بضربة من ابريق زجاجي كان من الهدايا التي تلقتها أمي بمناسبة الزواج. وأذكر ان امي كانت وقت الحادثة في المخزن تفتش عن شيء ما ، فلما خرجت وشاهدت المنظر الدائر تخيلت خطأ ان ابي كان يلاحق السيدة دودي .

وكان من خادماتنا أيضـاً السيدة روبرتسن وهي عجوز زنجية سمينة ، تنظر اليها فلا تدري ان كانت قد بلغت الستين



وفي احدى الليالي وهي تنظف الصحون ...

من العمر أو ناهزت المائة . وقد اوقعتنا في اكثر من ورطـــة خلال سني خدمتها لدينا . كانت فيما مضى جـارية في الجنوب وتذكر انها رأت فرقاً من الجيش تسير ، بعضها يرتدي بزات زرقاء وبعضها يرتدي بزات رمادية . وسألتها امي « عـــلام كانت تتقاتل ؟ » فأجابت « ذلك مـــا لا اعرف » . كانت تشعر دائماً بان شيئاً ما سوف يحدث ، واستطيع الآن ان أتخيلها خارجة من الطابق الأرضي تحمل سلة مليئة بالثياب ثم تقف فجأة في وسط المطبخ لتقول بصوت أجش «انصتوا !» فننصت جميعاً ولكن لا نسمع شيئاً وقد تصرخ بأعلى صوتهـا قائلة « انظروا هناك ! » وتشير باصبعها الى النافذة ، فننظر ولا نرى شيئاً . ومرة كان أبي منكباً على بعض الحسابات في المكتب ، فدخلت عليه من نفسها متأبطة وعاء مليئاً بالملابس المبلولة ، رفع أبي نظره اليها ، ونظرت هي اليه لحظة صامتة ثم صاحت به « انتبه ! » وخرجت . وفي عصر احـــد أيام الشتاء الغائمة أتت الى المطبخ من القبو منهوكة مقطعة الأنفاس، وكان ابي في المطبخ يشرب فنجاناً من القهوة وهـــو متوتر الأعصاب بسبب خلعه أحد اسنانه في ذلك اليوم ممـا ألزمه السرير معظم يومه . قالت وهـي ترتجـــف « سمعت حشرة الموت في القبو » . وأجـاب ابي « لعله صرصار » . فـردت

صرار « انه حشرة الموت » ، ثم وضعت قبعتها على رأسها
مضت الى البيت ، ولكنها قبل ان تذهب وقفت بالباب
شق أبي بنظرة استنكار ثم قالت له : «لا سبيل الى النجاة».
قد أزعجه ذلك أياماً .

اذكر ان السيدة روبرتسن ارتفعت مرة واحدة الى مستوى
ظيم ، وذلك عندما تغلب جاك جونسن على مستاه جفريز في
رابع من تموز (يوليه) عام ١٩١٠ . فقد كان لها دور
رموق في الاستعراض الذي اقامه الزنوج في تلك الليلة ورقصوا
يه الرقصة الاسبانية على انغام البانجو . وكان على رأس
لاحتفال كاهن أبرشيتها الذي فسر تغلب جاك جونسن على
ستاه جفريز بأنه دليل على « تفوق عنصرهم » . ولما سألتها
مي « ماذا يعني بذلك ؟ » أجابت « ذلك ما لا اعرف » .

أما خادماتنا الأخريات فلا أذكر بوضوح منهن الا تلك
تي أشعلت البيت (غاب اسمها عن ذهني) وإيدا ميلموس .
كانت ايدا دائمة العبوس ولكنها استطاعت ان تسايرنا بضعة
شهر ، وظلت طوال مدة بقائها معنا منصرفة الى عملها بجد
هدوء الى ان كانت الليلة التي دعا فيها أبي كارسون بلير وف.د.
اردنر الى العشاء وكان أبي يعلق على كلا الرجلين آمالاً

عراضاً في تحقيق ما كان يطمح اليه . وبينما كانت ايدا تقـدم الصنف الأول من العشاء أسقطت ما كان بيدها فجأة وأخذت ترجف من الغضب وتصرخ بأبي متهمة اياه بأنه سلبها حقوقها في الارض التي تقوم عليهـا كنيسـة الثالوث في نيويورك . وعندها أصيب غاردنر باحدى « نوباته » وانتهت الليلة نهـاية رديئة .

الكلبُ الذي
كان يَعض النَاسَ



يجب ألا يمتلك شخص من الكـــلاب ما امتلكتـه أنا ، ولكن أغلبها كان مصدر متعة لي لا ازعاج الا كلباً واحداً من فصيلة الأرديل اسمه « مفس » . فقد سبب لي هذا الكلب من المتاعب اكثر مما سببه لي الأربعة والخمسون او الخمسة والخمسون كلباً الأخرى مجتمعة ، على الرغم من ان اشد ما ضايقني هـو كلبة اسكتلندية اسمها جيني كانت قـد وضعت ستة جـراء في غرفة الملابس من شقة في الطابق الرابع في نيويورك ثم وضعت السابـع على غير انتظار عند زاوية في ملتقى الشارعين السابع والخامس اثناء نزهة أصرت ان تقوم بها . وهناك ايضاً الكلبة الفرنسية السوداء — ليست كالكلاب البيضاء الصغيرة الهادئة — التي ازعجهـا ان تركب السيارة معي في الطريق الى غرينتش

حيث كان معرض الكلاب . وكان مربوطاً حول عنقهـا مريلة
حمراء من المطاط ولما اخـــذ المطـر ينهمر ونحن في منتصف
طريق أصبح لزاماً علي ان أمسك من فوقهـــا بمظلة صغيرة
خضراء . ثم ازداد هطول المطر فدخل السائق مرأباً مليئـــاً
الميكانيكيين . وحدث ان نسيت ان اطوي المظلة وسأذكر
ماحييت النظرة التي ارتسمت على وجه عامل المرأب الذي جاء
يسألنا ماذا نريد ، فانه لما نظر الى السيارة ورآني والكلبـــة
رشقنا بنظرة من لايصدق ما تراه عيناه ناهيك عما كان فيها من
كره ومقت . كل عمال المرائب ومن لهم علاقة بها يكرهون
هذا النوع من الكلاب بشعرها المقصوص وخاصة التي يجب ان
تتركها دائماً تقعي اذا كنت تأمل ان تكسب لك اي جائزة .

غير ان الكلب الأرديل الذي ذكرته في مطلع القصة كان
اردأ كلابي كلها . لم يكن في الحقيقة كلبي وانما عدت من العطلة
الصيفية ذات مرة فوجدت أخي روي قد اشتراه اثناء غيابي .
كان كلباً كبيراً بديناً شديد الغضب يتصرف دائمـــاً كأنني في
ظنه لست واحداً من افراد الأسرة . وكانت هناك مـــيزة
لكون المرء فرداً من الأسرة لأنــه لم يكن يعضهم بمقـدار ما
كان يعض الأغراب . ومع ذلك فانه خـلال المدة التي قضاها
معنا عض كل واحد منا عدا والدتي ، وقد حاول مرة ولكن

أخطأه التوفيق ، وكان ذلك في الشهر الذي ظهرت فيه الفئران في بيتنا ورفض مغس ان يفعل أي شيء تجاهها . لم اسمع ان شخصاً ما ظهر في بيته فئران كالفئران التي ظهرت في بيتنا ، فكانت كالحيوانات المدللة وكأن شخصاً ما دربها . كانت أليفة لدرجة ان والدتي لما دعت اعضاء فرير لايراس الى العشاء — وهو نادٍ ينتسب اليه ابي وامي منذ عشرين عاماً — وضعت كثيراً من الصحون الصغيرة على ارض المخزن لعل الفئران تكتفي بها فلا تأتي الى غرفة العشاء . وبقي مغس راقداً في المخزن مع الفئران يهمهم ويهر لوحده — لا على الفئران وانما على الناس في الحجرة المجاورة الذين كان يود لو يصل اليهم . ودلفت امي مرة الى المخزن لتطمئن الى الاوضاع فيه فوجدت كل شيء على ما يرام . ولكن أثار جنونها أن رأت مغس راقداً هناك غير شاعر بوجود الفئران التي هرعت اليها ، فلطمته وحاول هو ان ينهشها ولكنه لم يبلغها . وشعر ، كما قالت امي ، بالأسف . فقد كان ، كما قالت ، يبدو متأسفاً كلما عض احداً ولكننا لم نعرف كيف قرأت أسفه اذ لم يكن في تصرفه ما يدل على ذلك .

واعتادت امي ان ترسل كلما حل عيد الميلاد علبة من الحلوى الى الذين عضهم الكلب الأرديل . واخيراً اصبحت

القائمة نحو اربعين اسماً او اكثر . وكان الناس يحارون في اسباب عدم تخلصنا من هـذا الكلب . واعتقد ان شخصاً او شخصين حاولا دس السم له فتظاهر كأنـــه متسمم برهة من الزمن ، وذات مرة اطلق عليـه الميجر موبرلي — وهو ضابط عجوز — النار من مسدسه الحربي القـديم قرب فندق سنيكا ، ولكن الكلب ظل حياً حتى اوشك ان يبلغ الحادية عشرة . ولما اصبح لا يقوى على التجول عض احد اعضاء الكونغرس عندما جاء ليرى والدي في موضوع يتعلق بالعمل . ولم تكن امي تحب ذلك الشخص لأن طالعه يدل على انـــه لا يؤتمن (برجه زحل عندما يكون القمر في السنبلة) ، ومع ذلك ارسلت له في عيد الميلاد علبـــة من الحلوى . واقنعت امي نفسها ان عض الكلب له كان لمصلحتنا برغم ان والدي خسر صفقة هامة بسبب تلك العضة . وكانت تقول « أنا لا أريـد ان تكون لنا علاقة بذلك الرجل ، لقـد استطاع مغس ان يقرأه ككتاب مفتوح » .

وكنا نتناوب اطعام مغس أملاً في اكتساب ثقتـه ، ولكن ذلك لم يكن دائمـاً يأتي بالفائدة المرجوة ، فلم يكن قط حسن المزاج حتى ولا بعد الوجبات . ولم يستطع احد ان



ولم يستطع احد ان يعرف ما به

يعرف ما به ، ولكن مهما تكن علته فقد جعلتــــه أميل الى العصبية والغضب وخاصة في الصبــاح . وكذلك كان روي دائماً مكدر المزاج في الصباح وبخاصة قبل ان يتناول فطوره. وحدث مرة ان نزل من غرفته فوجد مغس قــد لاك جريــدة الصباح فما كان منــه الا ان رمــاه في وجهه ببرتقالة كانت في يده . ومــا كان من مغس الا أن وثب عليه فارتد قافزاً الى غرفة الطعام ، واصطدم بالطاولة فتطايرت الصحون وتبعثرت

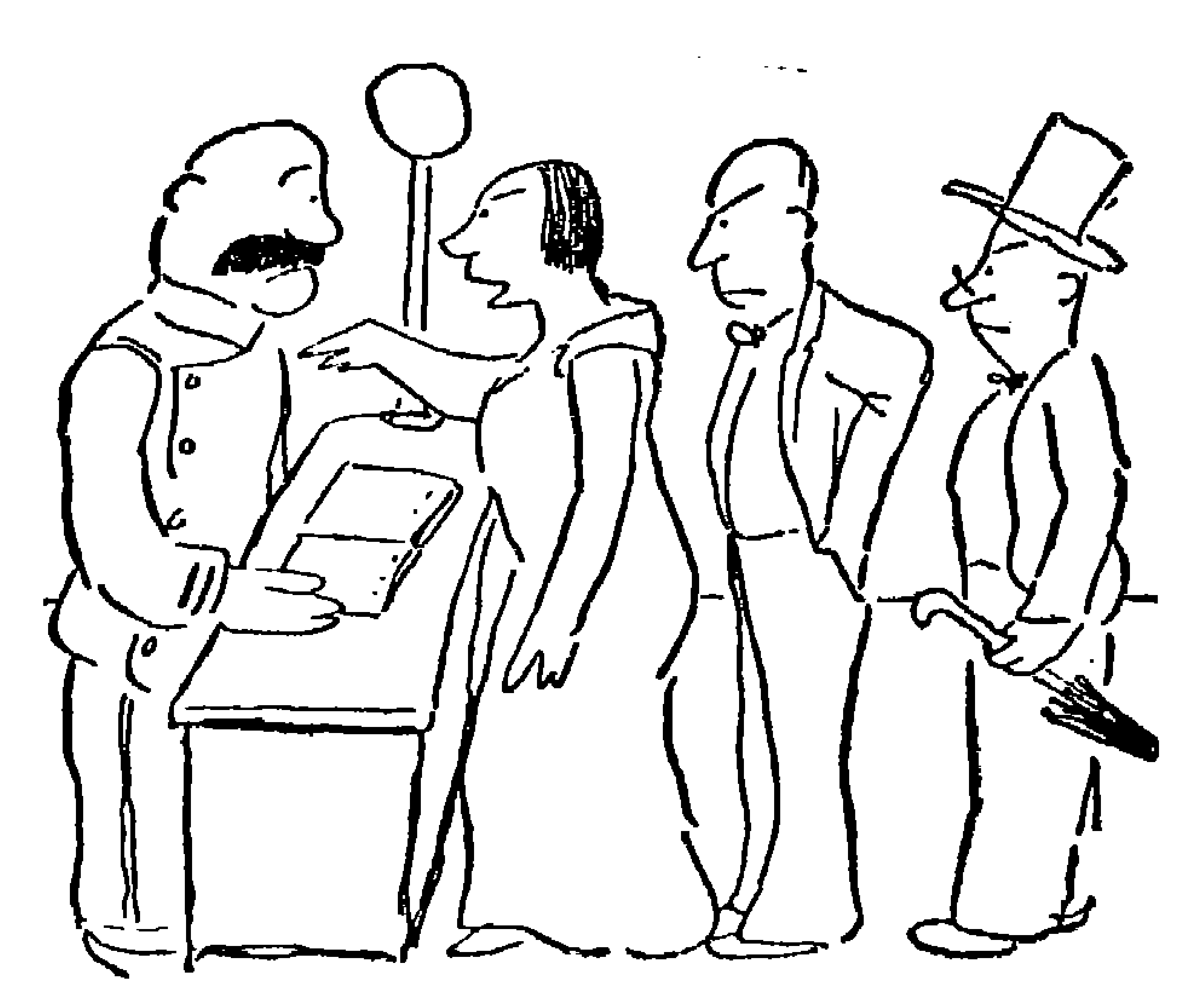
ادوات المائدة ، ولم يوقف اندفاعه الا حاجز الموقد ، فوقع ولكنه سرعان ما وقف على رجليه . وأخيراً أدركه الكلب وعضه في رجله عضة أودعها كل حقده . وعندهـا انتهى كل شيء فقد كان من عادة الكلب الا يعض أحداً أكثر من عضـة واحدة في المرة الواحدة . وكانت امي تذكر هذه الحقيقة في معرض الدفاع عنه ، فكانت تقول انه سريع الغضب ولكنه لا يحمل حقداً . كان دأبها ان تدافع عنه ، ولعلها كانت تفعل ذلك لأنـه لم يكن صحيح الجسم . وكانت تقول «انه ليس قوياً» ، وذلك غير صحيح . فذلك الكلب ربما لم يكن صحيح الجسم ولكنه كان قطعاً قوياً جداً .

وفي ذات مرة ذهبت امي الى فندق تشيتندن لمراجعة امرأة متخصصة في شفاء الاضطرابات العصبية وكانت تحاضر في مدينة كولومبس في موضوع « الاهتزازات التوافقيـــة » . وكان قصدها ان تعلم ما اذا كان من الممكن احـــداث الاهتزازات التوافقية في كلب . ووصفتـــه امي للمرأة بأنه كلب كبير من فصيلة الارديل أحمر الشعر . وقالت المرأة لأمي انها لم تعالـج كلباً في حياتها ونصحتها ان تقنع نفسها بفكرة ان الكلب لا يعض ولن يعض . وفي اليوم التالي كانت امي متمسكة بالفكرة عندما عض مغس موزع الثلج ولكنهـــا اصرت على ان

الموزع كان الملوم . وقالت له « لو قلت لنفسك ان الكلب لن يعضك لما عضك » . ولكنه انطلق خارجاً من بيتنا وهو لا يقوى على الكلام لشدة الارتعاش الذي اصابه .

وذات صباح عضني عضة بسيطة لعلها كانت من قبيل المداعبة . فأمسكته من ذنبه ورفعته في الهواء . وكان ذلك تصرفاً جنونياً مني ، وآخر مرة رأيت فيها والدتي قبل نحو ستة اشهر قالت لي انها لم تعرف ماذا دهاني آنذاك . وانا ايضاً لا اعرف ماذا دهاني سوى انني فقدت السيطرة على اعصابي . لم يكن باستطاعة الكلب ان يبلغ الي طالما ابقيته مرفوعاً بذنبه عن الارض ، ولكنه راح يتلوى وينتفض بشكل ادركت معه انني لن استطيع ابقاءه مرفوعاً مدة طويلة ، فحملته الى المطبخ وألقيته على الارض واغلقت الباب في اللحظة التي وثب فيها واصطدم به . ولكني نسيت الدرج الخلفي . لقد صعد الكلب الدرج الخلفي وهبط الدرج الامامي وحاصرني في غرفة الجلوس . واستطعت الصعود فوق الموقد ولكنه تهاوى تحتي محدثاً جلبة قوية ، وسقطت معه ساعة كبيرة وبعض المزهريات وكنت انا في عداد ما سقط . ويبدو ان الجلبة افزعت الكلب فما وقفت على قدمي حتى كان قد اختفى . ولم نعثر له على اثر رغم اننا ناديناه وصفرنا له . واخيراً جاءت

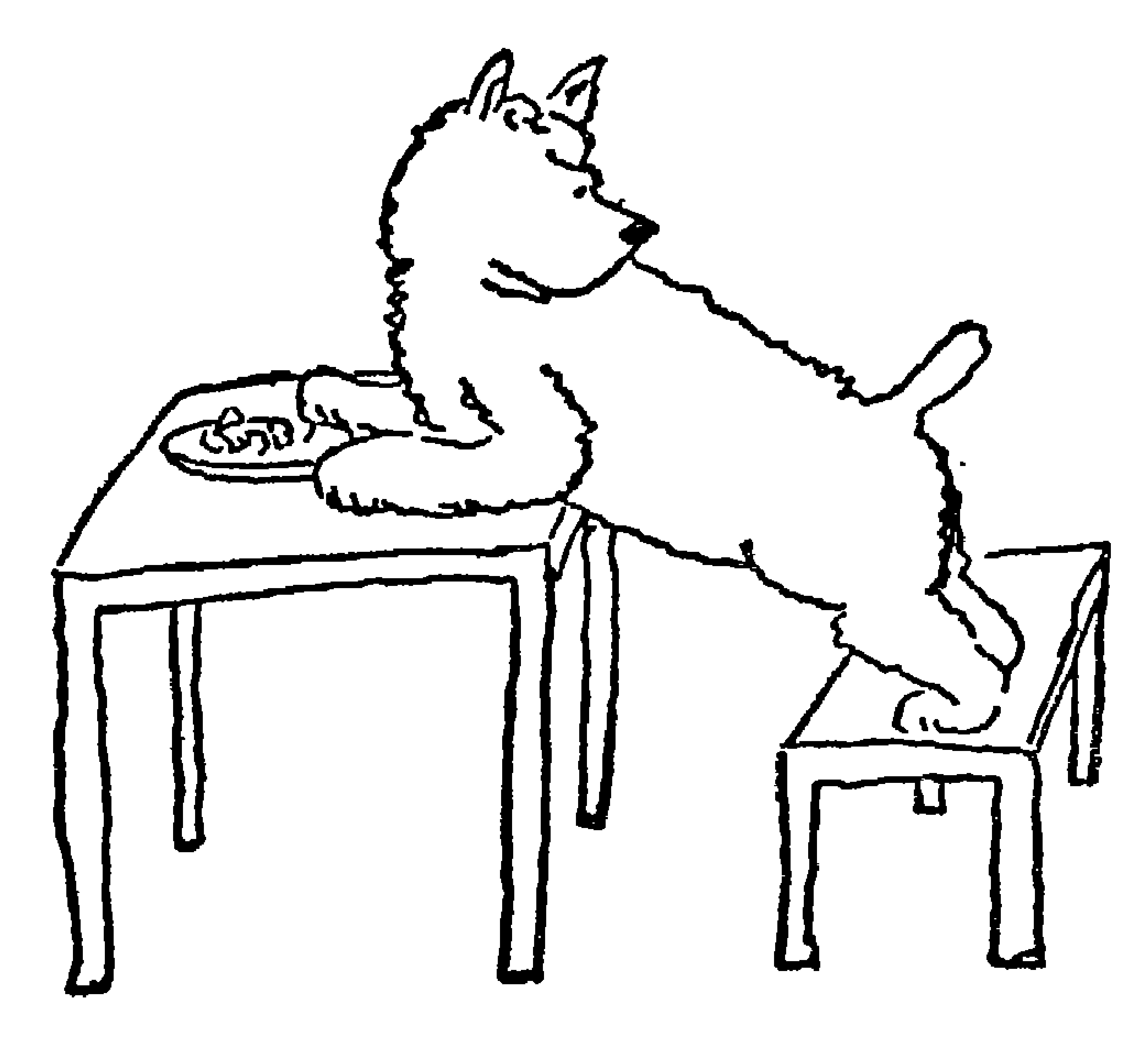
السيدة ديتويلر بعد العشاء وشكت من انه عضهـا عضة واحدة في رجلهـا ، ولم تدخل غرفة الجلوس الا بعد ان اكدنا لها انه ترك البيت . وما ان جلست حتى خرج مغس من تحت احد الكراسي حيث كان مختبئـاً طوال الوقت . وفحصت امي العضة ووضعت عليها شيئاً من مـادة مطهرة وطمأنت السيدة انهـا ليست سوى رضة بسيطة قائلة « يبدو انه اصطدم بك فقط » . غير ان السيدة تركت بيتنا وهي في حالة نفسية مؤلمة .



تشكى كثير من الناس الى البوليس من كلبنا

لقد تشكى كثير من الناس الى البوليس من ذلك الكلب ولكن ابي كان في ذلك الوقت من المسؤولين في البلدية وكان على علاقة حسنة مع البوليس . ومع ذلك فانهم جاءوا الى بيتنا مرتين ، مرة عندما عض مغس السيدة روفوس ستورتيفانت والثانية عندما عض نائب الحاكم ، ولكن امي قالت لهم ان الذنب لم يكن ذنب الكلب وانما ذنب الناس الذين عضهم لأنهم عندما يهجم عليهم يصرخون وصراخهم يثيره فيعضهم . وارتأى رجال البوليس ربط الكلب ولكن امي احتجت بأن القيد يؤلمه فلا يأكل .

كان منظر مغس وهو يتناول طعامه منظراً غير مألوف . فقد كنا نضع له الطعام على طاولة في مطبخ قديم ، والى جانبها مقعد طويل ، وذلك لأن من يحاول وضع الطعام له على الارض يخرج بعضة منه . وكان مغس يقف على المقعد ويأكل . واذكر ان عم امي هوراشيو الذي كان يفخر بأنه الرجل الثالث في مشنري ردج راح يتنزى غضباً عندما علم اننا نطعم الكلب على طاولة لأننا نخاف منه فلا نضع له الطبق على الارض . وأخذ يتبجح بأنه لا يخشى كلباً كائناً ما كان وانه مستعد لوضع الطبق على الارض اذا اعطيناه له . فقال روي لو ان العم هورا شيو وضع طعام مغس على



كان منظر مغس وهو يتناول طعـــامه منظراً غير مألوف

الارض قبل المعركة لكان الرجل الاول في مشتري ردج . وزاد ذلك في غضب العم هوراشيو وصاح « احضروه هنا ! احضروه هنا ! سأطعم – على الارض ! » . كان روي تواقاً لاعطائه الفرصة ولكن ابي رفض باصرار قائلاً اننا اطعمنا مغس قبل قليل . فقال العم هوراشيو « اذن اطعمه ثانية » . وبعد لأي وجهد هدأ .

اعتاد مغس في السنة الاخيرة من عمره ان يقضي كل وقته خارج البيت ، ولم يكن يطيق البقاء فيه لسبب او لآخر – لعله كانت له فيه ذكريات كثيرة مزعجة . على اي حال كان من الصعب ادخاله الى البيت ، ونتيجة لذلك لم يعد جامعو النفايات وموزعو الثلج وعمال الغسيل يقتربون من بيتنا فأصبح لزاماً علينا ان ننقل النفايات الى الزاوية وان نأخذ الملابس الى المغسلة ونحضرها وان نلاقي موزع الثلج بعيداً عن البيت . وبعد مدة توصلنا الى طريقة فذة لادخال الكلب الى البيت وحبسه فيه ريثما يقوم مأمور الغاز بقراءة العداد . كان هناك شيء واحد يخيف مغس وهو العاصفة البرقية ، فكان الرعد والبرق يخيفانه الى درجة الهلع (اعتقد انه يوم سقط الموقد بي ظن ان عاصفة قد هبت) . فاذا هبت العاصفة اندفع داخل البيت واختبأ تحت احد الاسرة

او في خزانـــة الملابس . ولذلك صنعنا آلة لاحداث صوت كالرعد وهي عبـــارة عن قطعة طويلة رفيعة من لوح من الحديد في طرفها مقبض خشبي . وكانت امي عندما تريـــد ادخاله الى البيت تهز القطعة هزاً عنيفـاً فتحدث صوتاً كهزيم الرعد تماماً . ولعل هذه الطريقة كانت اشد الطرق التي عرفها الانسان التواء في ادارة المنزل ، فقـد كانت تستنزف الكثير من طاقة امي .

وقبل موته ببضعة اشهر اخذ يبدو وكأنه يرى اشباحاً ، فقد اعتاد ان ينهض عن الارض متثاقلاً فيهمر بصوت خافت ويمضي متيبس الأرجل كأنه يريد ان يهاجم شيئـاً يراه بينما لم يكن هناك في الحقيقة شيء ألبتة . وقـد يكون الشيء الذي يتوهم انه يراه الى يمين زائر او يساره . ومرة اوشك بائـع المكانس ان يجن ، فقـــد دخل مغس الى الغرفة مثـــل هاملت وهو يتبع شبح ابيه . وكانت عينـــاه مركزتين على شيء ما الى يسار بائع المكانس الذي ظل واقفـاً حتى اصبح الكلب على بعد ثلاث خطوات منه وصرخ . ولكن الكلب مر من جانبه وسار في الممر وهو يهمر لنفسه ولكن البـائع مضى يصرخ ويصرخ ، ولم يسكت الا بعد ان سكبت عليـه امي قدراً من الماء البارد ، فقد كانت هذه طريقتها في اسكاتنا

عندما نتشاجر .

وذات ليلة مـــات مغس فجأة وبهـدوء . وأرادت امي ان تدفنه في مقبرة الأسرة وان تضع على قبره نصبـــاً من الرخام محفوراً عليه « صاحَبتك ترانيم الملائكة الى مثواك » ، ولكننا اقنعناها بالعدول عن الفكرة لأن القانون لا يبيحها . واخيراً وضعنا لوحاً من الخشب فوق قبره الذي كان الى جانب طريق قلما يعبره احد، وكتبت على اللوح بقلم الرصاص « حذار من الكلب » * . وقد سرت امي بوقع المثل اللاتيني القديم .

★ Cave Canem



أَيَّامُ الجَامِعَة



كل موضوع درسته في الجامعة نجحت فيه الا علم النبات فلم استطع ان احصل فيه على درجة النجاح . وكان السبب في ذلك ان طلاب هذا العلم كان لا بد ان يقضوا بضع ساعات كل اسبوع في المختبر ينظرون بالمجهر الى خلايا النبات ، ولم استطع قط في حياتي ان ارى شيئاً بالمجهر . لم يحدث ان رأيت به مرة خلية ، وكان ذلك يغضب المدرس .

كان المدرس يدور في المختبر مغتبطاً بما يحرزه الطلاب الآخرون من تقدم في رسم خلايا الأزهار المعقدة والتي قيل لها انها ممتعة . واخيراً يصل الي فيجدني واقفاً لا افعل شيئاً . وكان اعتذاري دائماً : « لا ارى شيئاً » . فيتصبر ويمضي

يشرح لي كيف ان أي شخص يستطيع ان يرى بالمجهر، ولكنه كان دائماً ينتهي الى الغضب ويتهمني بأنني استطيع كغيري ان ارى به ولكني اتظاهر بأنني لا ارى . وكنت اقول له « على كل حال فان المجهر يذهب بجمال الازهار » ، فيجيبني « نحن لا نهتم بالجمال في هذا الدرس وانما بما يمكن ان يسمى ميكانيكا الازهار » . واذا قلت له بعد ذلك «لا أرى شيئاً» قال «جرب مرة اخرى» . وأضع عيني على المجهر وانظر فلا ارى شيئاً ابداً واذا رأيت فانني لا ارى الا شيئاً سديمياً ابيض كالحليب – هذه احدى ظواهر العجز عن تكييف العين . وكان المفروض ان يرى المرء خلايا نباتية واضحة المعالم ذات خطوط وتكوينات منتظمة . وكنت انادي المدرس لأقول له انني ارى شيئاً اشبه بالحليب فيجيب بأن ذلك لأنني لم أضبط المجهر ، ثم يأتي ويضبطه لي او بالاحرى لنفسه ، فانظر ثانية ولكنني لا ارى الا الحليب .

واخيراً اعتبرت «مكملاً» على ان انتظر سنة واحاول مرة اخرى . (كان لا بد للطالب من ان يجتاز احد فروع الاحياء والا لم يعتبر متخرجاً) . وعاد الاستاذ من العطلة لوحته الشمس وفي عينيه بريق ، متشوق الى شرح تركيب الخلايا مرة اخرى لطلبته . ولما رآني في

اول حصة في المختبر تهلل وجهه وقـال : « سوف نرى الخلايا هذه المرة ، أليس كذلك ؟» فرددت : «نعم يا أستاذ» . مضى الطلاب من أمامي ومن خلفي وعلى جانبي يرون الخلايا ، وفوق ذلك مضوا يرسمون بهـدوء صور تلك الخلايا في دفـاترهم . وبطبيعة الحال لم أر شيئاً .

قال الاستاذ : «سنجرب كل تعديل للمجهر عرفه الانسان، وليشهد الله علي انني سأضبط هذا المجهر بشكل يجعلك ترى به الخلايا أو أترك مهنة التعليم الى الأبد . في خلال اثنين وعشرين عاماً من تدريسي النبات لم ـ » وهنا توقف فجأة فقد أخذ يهتز من رأسه الى اخمص قدمه كما يهتز ليونل باريمور . وكان يود من كل قلبه أن يضبط نفسه ، فقد كانت مواقفـه معي تؤثر فيه تأثيراً شديداً .

وهكذا جربنا كل تعديل للمجهر عرفه الانسان ، ولكنني في مرة واحدة فقط رأيت شيئاً عدا السواد او البياض الغائم، فقد نظرت في تلك المرة ورأيت ، لشدة عجبي واستغرابي ، مجموعات كبيرة من اللطخ السوداء والبقع والنقط ، فأخـذت ارسم ما ارى بسرعة . ولما لاحظ المدرس نشاطي وانكبابي على الرسم جاء الي مبتسماً والأمل يشع من عينيـه . نظر الى



فقد اخذ يهتز من رأسه الى اخمص قدمه كما يهتز ليونل باريمور

الخلية التي كنت ارسمهـــا وما لبث ان صاح : « ما هذا ? »
فأجبت : « هذا ما رأيته » . وعندها استشاط غضباً وفقـد
السيطرة على اعصابه وأخذ يصرخ « لا يمكن ، لا يمكن ! ».
ثم قرفص ونظر في المجهر وعاد يصيح بي « هذه عينك . لقد
جعلت العدسة في وضع تعكس ما خلفها . لقد رسمت عينك
بدلاً من الخلية » .

وهناك موضوع آخر كنت امقته ولكني تمكنت من النجاح
فيه . ذلك هو علم الاقتصـاد . ذهبت من صف النبات رأساً
الى صف الاقتصاد ، ولكن ذلك لم يساعدني في فهـم أي من
الموضوعين . ولكني لم اكـن اصم كتلميذ آخـر جاء الى صف
الاقتصاد رأساً من مختـبر الفيزياء . كان أحـــد الذين يعتمد
عليهم فريق كرة القدم وكان اسمه بولنسايكوفش . وكان
فريق جامعة أوهايو في ذلك الوقت من احسن الفرق في البلاد،
وكان بولنسايكوفش احد نجومـــه اللامعة . ولكن لم يكن
يحق له اللعب الا اذا نجح في دروسه ، وهي مسألة صعبة جداً
لأنه وان لم يكن أقل ذكاء من الثور فانه لم يكن أوفر منه .
وكان معظم الأساتذة متسامحين معـه ويساعدونه . ولكن لم
يكن بينهم من يعطيه تلميحات الى الاجابة اكـثر من أستاذ
الاقتصاد ، كما لم يكن هناك من يوجـــه اليه اسئلة اسهل من

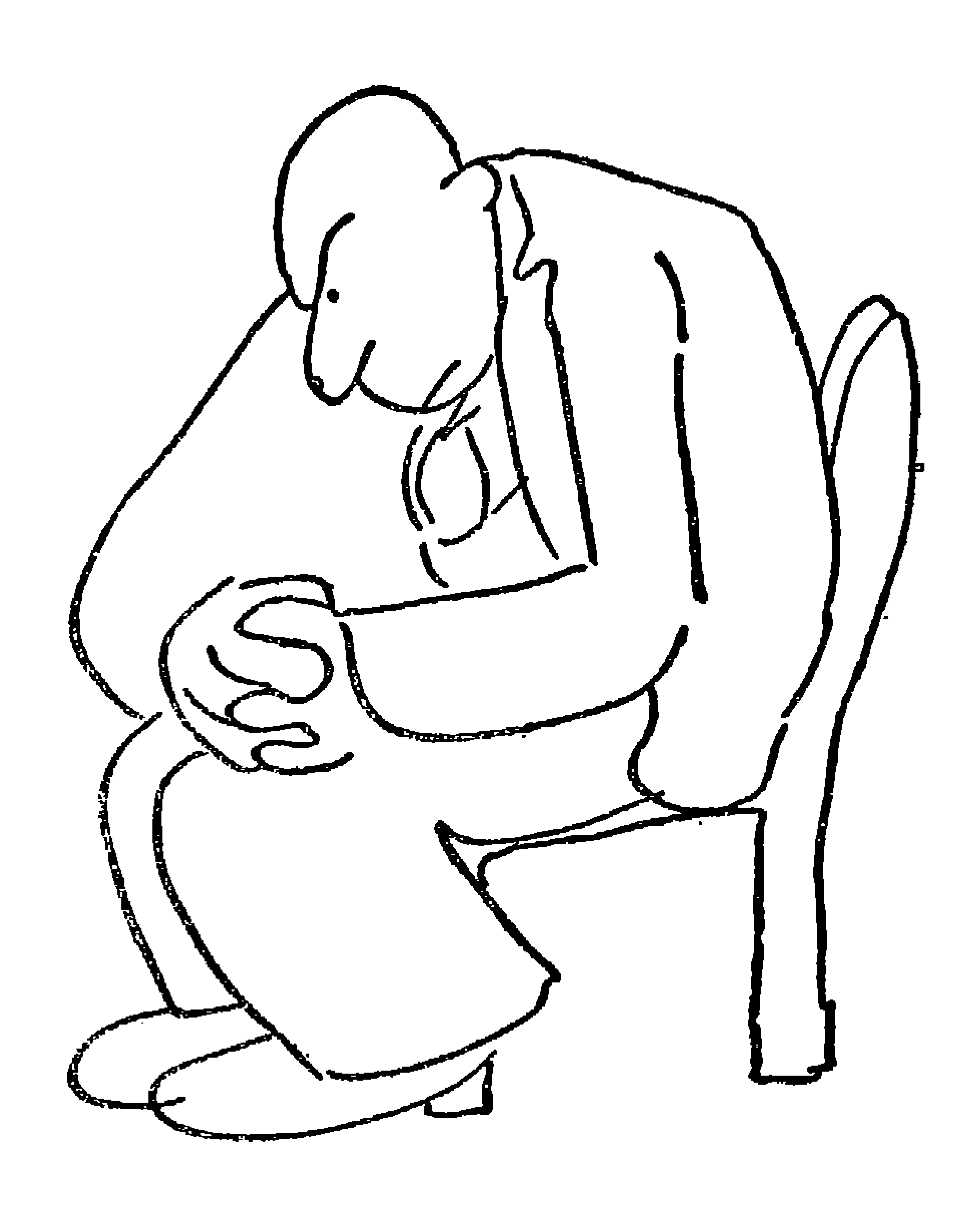
اسئلته . وكان استاذ الاقتصاد هذا رجلاً دقيق العـود هادىء الاعصاب اسمه باسوم . وذات يوم جاء دور بولنسايكوفش في الاجابة وكان الموضوع عن وسائل النقـل والتوزيع . فسأله « أذكر واحدة من وسائل النقل » . لم تـبرق عينا لاعب الكرة بما يدل على انه يعرف الجواب . فقال الاستاذ « وسيلة واحدة فقط » . ولكن بولنسايكوفش ظل يحدق فيه . وعاد الأستاذ يقول : « كل ما هو مطلوب منك ان تذكر وسيلة او طريقة او واسطة واحدة للذهاب من محل الى آخر » . وبدا على بولنسايكوفش كأنـه مسوق الى مكيـدة . فعاد الاستاذ يوضح له : « تستطيع ان تختار احدى وسائط النقل البخارية أو التي تجرها الخيل او التي تدار بالكهرباء . مثلاً الواسطة التي نسافر بها في رحلاتنا الطويلة عادة » . وخيم صمت كان كل واحد يتململ فيه قلقاً بمـا في ذلك بولنسايكوفش والأستاذ باسوم . وفجأة قطع الأستاذ الصمت بصوت منخفض « تشو . تشو ... تشو ...» مقلداً صوت القطار . وبطبيعة الحال كنا كلنا نشارك الأستاذ باسوم رغبته في ان يظل بولنسايكوفش متقدمـاً الصف في الاقتصاد لأنـه لم يكن قـد بقي على مباراة الينوي سوى اسبوع واحـد وهي من أهم مباريات الموسم وأصعبها . وارتفع صوت تلميـذ « طوط طو... ط طو...ط»، ونظرنا كلنا الى بولنسايكوفش نشجعه. وقلد تلميذ

آخر كيف يطلق القطار البخار . وعاد الأستاذ يلمح : « دنغ دونغ ، دنغ ، دونغ » . ولكن بولنسايكوفش أخذ عندها ينظر الى الأرض محاولاً التفكير وقد تجعد جبينه واحمر وجهه وأخذ يفرك يداً بيد .

عاد الاستاذ يسأله : «كيف أتيت الى الكلية هذا العام؟» ومضى يقلد صوت القطار قبل ان يتلقى الاجابة : «تشف ... تشف ... تشف » . فجاء الجواب « ارسلني أبي » . وسأل الأستاذ : « ولكن كيف ؟ » فأجاب لاعب الكرة وقد بدا عليه الارتباك : « احصل على مخصصات » .

« لا ، لا ، ليس هذا قصدي . اذكر وسيلة المواصلات التي جئت بها » . وأخيراً أجاب بولنسايكوفش « بالقطار ». قال الأستاذ بارتياح « صحيح ، والآن دورك يا سيد نجنت . تحدث عن ... » .

واذا كان علي ان احمل ما حملته من النبات والاقتصاد فقد كان درس الرياضة عندي أسوأ منهما كليهما . فالكلية لا تسمح لك بأن تشارك في الألعاب او التمارين محتفظاً بنظارتك على عينيك . ولم يكن بوسعي أن أرى دون نظارات . وكثيراً



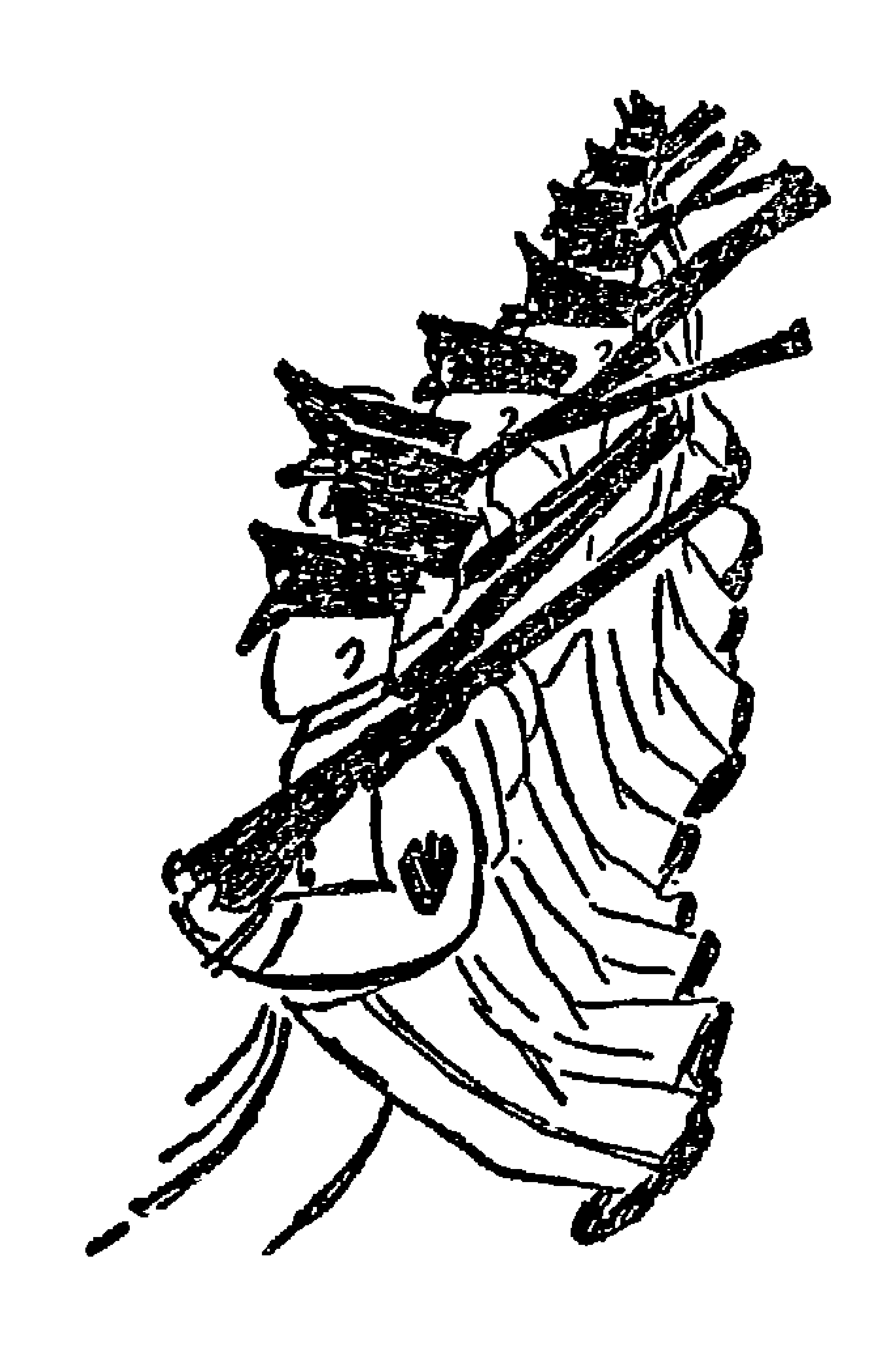
كان بولنسايكوفش يحاول التفكير

ما اصطدمت بالاساتـذة والعوارض وطلاب كلية الزراعـــة والأراجيح . وأنا أتقبل كوني لا أرى ولكنني لم اكن استسيغ النتائج . ولكي ينجح المرء في الرياضة (ولا بـد من النجاح للتخرج) فان عليه ان يتعلم السباحة ان لم يكن يتقنها . ولم أكن أحب بركة السباحة ولم اكن أميل الى السباحـة أصلاً ، زد على ذلك انني لم اكن أحب معلم السباحة ، وما زلت بعد هذه السنوات كلها لا أحب البركة ولا السباحـة ولا المعلم . لم أتعلم السباحة قط ولكني نجحت على أي حال ، فقـد جعلت تلميذاً آخر يستعمل رقمي (٩٧٨) ويحـل مكاني . كان ذلك التلميذ فتى هادئاً أشقر الشعر ابيض اللون جذاباً ، وكان رقمه ٤٧٣ ، وكان مستعداً لأن ينظر بدلاً مني بالمجهر ويرى الخلية لو وجدنا الى ذلك سبيلا ، غير اننا لم نجد . ومما كنت امقته فيما يتعلق بالرياضة أنه كان يطلب من الشخص ان ينزع ثيابـه عند التسجيل ، ومن العسير علي ان اشعـــر بارتياح اذ أسأل أسئلة كثيرة علي ان اجيب عنها وانا عـار . ومع ذلك فقـد أجبت خيراً من طالب آخر في كلية الزراعة استجوب قبلي . فقد كان كل تلميذ يسأل الى أي كليـة ينتسب ، والمقصود ان يجيب الطالب كلية الآداب او كلية الهندسة او كليـة التجارة او كلية الزراعة . ولكن الشاب الذي كان امامي أجاب عن السؤال دون تردد : « جامعة ولاية اوهايو » .

وطالب الزراعة هذا هو غير طالب الزراعة الذي قرر ان يمارس الصحافة ، ولعله كان ينوي ان يعمل في صحيفة اذا لم تجد الزراعة نفعاً . ولم يدرك بطبيعة الحال ان ذلك يشبه السقوط على عدة النجارة . ولم يكن صاحبنا ، واسمه هاسكنز مهيئاً للعمل في الصحافة لأنه كان يخجل من محادثة أي شخص ولا يستطيع الضرب على الآلة الكاتبة . ومع ذلك فان محرر الكلية عينه محرراً عن حظائر الأبقار والأغنام والخيول . وكان هذا قسماً هاماً لأنه كان يشغل خمسة اضعاف الأرض التي كانت تشغلها كلية الآداب ويخصص له في الميزانية عشرة أضعاف ما يخصص لها . ومع ان طالب الزراعة كان يعرف الحيوانات الا ان قصصه كانت تافهة فاترة . وكانت كل قصة تستغرق من وقته نصف يوم ، لأنه كان يفتش عن حروف الآلة الكاتبة ، وقد لا يهتدي الى الحرف المنشود فيستعين ببعض زملائه ليهديه اليه . وأخيراً تضايق المحرر من الصحافي المزارع لأن كتاباته كانت باهتة ، فقال له يوماً « لماذا لا نحصل منك يا هاسكنز على شيء مشوق عن حظيرة الخيول ؟ ان لدينا هنا مائتي رأس من الخيل ، وهو اكثر مما لدى أي جامعة في الغرب باستثناء جامعة بيردو . ومع ذلك فاننا لا نحصل على شيء له قيمته . اذهب الآن الى الحظائر وأتنا بشيء حيوي » . فغاب هاسكنز ساعة وعاد يقول انه وجد

شيئاً مهما . فقال له المحرر « ابدأ بسرعة و بجـاز . وليكن شيئاً يقرؤه الناس » وجلس هاسكنز الى الآلة الكاتبـة يدبج المقالة . وبعد ساعتين جاء بصفحة كاملة . كانت قصة من نحو مائتي كلمة عن مرض تفشى بين الخيول . وكانت الجملة الاولى بسيطة ولكنها أخاذة : « من رأى الدمامل في ظهور الخيـل في الحظائر ؟ » .

كانت جامعة أوهايو قد حصلت على الأرض التي تقوم عليها منحـة ، ولذلك كان التدريب العسكري لمـدة سنتين شيئاً اجبارياً . وكنا نتدرب ببنادق قديمـة من طراز سبرنغفيلد ، وكنا ندرس الخطط العسكرية في الحرب الأهلية رغم ان الحرب العالمية كانت مستعرة . وكان آلاف من طلبة السنتين الاولى والثانية ينتشرون في الساعة الحادية عشرة فيملأون ساحات الجامعـة ، وهم يسيرون بتثاقل الى مبنى الكيمياء . وكان تدريباً ملائماً للمعارك التي دارت في شيلوح ولكن لم يكن له علاقة بالحرب الدائرة في اوروبا . وكان بعض الناس يظنون ان الأموال الألمانية كانت وراء ذلك ، ولكنهم لم يكونوا يجرؤون على الجهر بظنهم لئلا يلقون في السجون بتهمة كونهم جواسيس للألمـان . كانت تلك فترة من تأسن الفكر ولعلها كانت ، فيما اعتقد ، بداية انهيار الثقافة العليا في الغرب الأوسط .



لم أكن جندياً ناجحاً قط . وكان معظم الطلبة جنوداً لا يبالون بشيء . أما أنا فـلم اكن ذلك الجندي الحسن . وفي ذات مرة وقف الجنرال ليتلفيلد ، آمر تدريب الطلاب ، امامي وصاح بي : « انت المشكلة الكبرى في هـذه الجامعة ! » . وأعتقد أنه قصد ان أمثالي كانوا المشكلة الكبرى في الجامعة ، ومن يدري لعله قصدني شخصياً . لم اتقن التمارين — طبعاً حتى السنة النهائية . وفي تلك السنة كنت قد تدربت اكثر من اي طالبآخر في الغرب لان الاخفاق كان حليفي في نهاية كل عام

فيتحتم علي ان اتدرب في العام التالي . وكنت الطالب الوحيد في السنة النهائية الذي كان ما زال مرتدياً بزته العسكرية . وكانت البزة وهي جديدة تجعلني ابدو كجابي القطار ، أما الآن وقد تغير لونها وضاقت فقد أصبحت أبدو بها مثل بيرت وليامز في ادوار الخدم . وكان لذلك تأثير سيىء في روحي المعنوية . وعلى الرغم من ذلك فقد أصبحت بالتمرين أقل قليلاً من رائع في المناورات .

وفي ذات يوم اختار الجنرال ليتلفيلد فرقتنا من الفوج كله وحاول أن يجعلها تضطرب بجعلها تنتقل من حركة الى اخرى بأسرع ما يمكن : يميناً در ، يساراً در ، الى اليمين داخل الخط در وهكذا ... وفي حوالي ثلاث دقائق كان مائة وتسعة رجال يسيرون في اتجاه واحد وكنت أنا أسير بعيداً عنهم على زاوية مقدارها أربعون درجة ، ولم يكن يرافقني في ذلك انسان . فصاح الجنرال « فريق ، قف . هذا هو الشخص الوحيد الذي أدى التمرين كما ينبغي » . وعلى أثر ذلك رقيت الى رتبة جندي أول .

وفي اليوم التالي استدعاني الجنرال ليتلفيلد الى مكتبه . ولما دخلت وجدته يقتل الذباب . لا اعتقد انه تذكرني او تذكر لماذا ارسل في طلبي ولكنه لم يرد الاعتراف بذلك .

قتل بضع ذبابات قبل ان يلقي بالمنشة ، وركز نظره عليها . ثم قال باقتضاب « زرر سترتك » . وأنا الآن عندما اذكر الحادثة أوقن أنه كان يعنيني وان كان ينظر الى ذبابة ، ولكنني في تلك اللحظة بقيت واقفاً . ثم جاءت ذبابة أخرى وحطت على ورقة أمام الجنرال وراحت تحك بهـا رجليها الخلفيتين . رفع الجنرال المنشة بحذر ، وفي تلك اللحظـة تحركت بسبب عدم ارتياحي فطارت الذبابة .

فنظر الجنرال الي شزراً وقال بصوت جاف « لقد اخفتها فطارت » . اعتذرت فقال بمنطق العسكر . « ذلك لن يغير الوضع ! » . لا أعرف ماذا كنت أستطيع ان أفعـل سوى أن ألاحق الذباب لأوجهه الى طاولته ، ولكني لم أقل شيئاً . وظل الجنرال ينظر من النافذة الى جماعات الطلبة والطالبات وهم في طريقهم الى المكتبـة . واخـيراً أذن لي بالانصراف فانصرفت . فاما انه لم يعرف اي طالب كنت او أنـه نسي السبب الذي استدعاني من اجله . لعله كان يريد ان يعتذر لي لأنه وصفني بأنني المشكلة الكبرى في الجامعة ، أو لعله أراد ان يثني علي لبلائي في التدريب في اليوم السابق ثم قـرر في اللحظة الأخـيرة الا يفعل ذلك . على أي حال أنا لا أعرف بماذا كان بباله ولم أعد أفكر كثيراً في الأمر .

ليالي مع لجنة التجنيد

كنت تركت الجـامعة في شهر حزيران (يونيه) من عام ١٩١٨ ، ولكني لم أستطع الالتحـاق بالجيش لضعف نظري تماماً كما لم يستطع جدي الالتحاق به بسبب كبر سنه . لقـد تقدم بطلبه مرات عدة ولكنه كان في كل مرة ينزع سترتـه ويهدد الذين يتهمونه بكبر السن بالضرب . وقد أحزنـه ألا يستطيع الذهاب الى المانيا (لم يجد أي معنى لذهاب كل الناس الى فرنسا) وأتعبـه التجول في المـدينة حيث يرى الموظفين المتنفذين حتى اضطر آخر الامر الى البقاء في البيت وعدم مبارحة السرير . كان يود لو يقود فصيلة ، فعزّ عليه الا يقبل جندياً عادياً . ولما لزم السرير كان أخوه جيك الذي يصغره بخمسة عشر عاماً يجلس الى جانب سريره طوال الليل لاننا كنا نخشى ان

يترك البيت حتى دون ان يرتدي ملابسه. وكان جدي متضايقاً من وجود جيك الى جانبه يحرسه – كان يرى في ذلك اضاعة للوقت – ولكن جيـك مضى عليـه ثمانية وعشرون عاماً لم يستطع خلالها ان ينام في الليل ، ولذلك كان الشخص الأمثل لحراسة جدي .

وفي الليلة الثالثة بقي جدي مستيقظاً ، فكان يفتح عينيه وينظر الى جيك ثم يغمضهما وهو عـابس . ولم يجب على أي سؤال سأله جيك . وحوالي الساعة الرابعة صباحاً وجد جيك نائماً في الكرسي الكبير الذي كان بجانب السرير . وجيك اذا نام أغرق في النوم . فقـام جدي من السرير وارتدى ملابسه ونزع ملابس أخيه ووضعه مكانه في السرير دون ان يوقظه . وعندما دخلت عمتي فلورنس الغرفة في الساعة السابعة صباحاً وجدت جدي جالساً على الكرسي يقرأ « مذكرات ي. س. غرانت » وجيك نائم في السرير . فقال جدي: « كان يحرسني وأنا نائم وها أنا أحرسه بعـد أن نام » . ومـاذا في ذلك ؟ أليس هذا عدلاً ؟

ان السبب الذي جعلنا نحرص على عدم تجول جدي في الليل هو أنه قال مرة او مرتين انـه سيذهب الى لانـكاستر ، بلدته في السابق، ويعرض مشكلته على « قمب » ، أي الجنرال



وحوالي الساعة الرابعة صباحاً وجد اخاه نائماً

وليم تيكومسي شيرمان ، وهو أيضاً في الأصل من لانكاستر.
وكنا نعلم ان عدم استطاعته العثور على شيرمان سيؤثر فيه كثيراً كما كنا نخشى ان يحاول الذهاب في السيارة الصغيرة المفتوحة التي اشتريناها لجدتي. والغريب أن جدتي حذقت التجول بها داخل المدينة وكان جدي يستغرب ويحتد عندما يراها تدخل السيارة وتقودها بيسر وسهولة. وكان هذا اول انتصار لها عليه في باب العربات خلال خمسين سنة من حياتهما الزوجية، وقد قرر ان يتعلم قيادة السيارة المذكورة بنفسه؛ فكان يتقدم منها كما يتقدم من مهر شموس، وهو الذي عرف في القديم بمهارته في ركوب الخيل ، فيحتقن وجهه ويأخذ يسب ويلعن.
وكان دائماً يقفز فيها بسرعة كأنه كان يخشى أن تنطلق من تحته اذا لم يعتل المقعد بسرعة. وكل مرة حاول فيها قيادة السيارة كان يدور بسرعة في دائرة صغيرة ثم يعبر المنعطف الى الرصيف حتى يبلغ الباحة المزروعة. وقد حاولنا كلنا ان نثنيه عن ذلك. ولكن ماذا نفعل اذا استشاط غضباً وصاح آمراً:
« أرجعوا الملعونة الى الشارع ». فنصدع للأمر ونزحزح السيارة وندفعها حتى نعيدها ، ولكن لا بد من أن يجرب مرة أخرى. ومرة أخرى ينتع قضيب التوجيه بعصبية وعنف ـ كأنه يلقن السيارة درساً ـ فتدور السيارة في دائرة ضيقة.
وعبثاً حاولنا افهامه أنه من الأفضل أن يهدىء أعصابه بدلاً

من أن يثور ويحتد ، فقد كان يظن أنـه ان لم يمسكها جيداً طرحته أرضاً ، ورجل مثله (كما قال لنا مراراً) كان يسوق آلة الحصاد التي تجرها أربعـة خيول وعمره خمس سنوات لم يكن ليسمح لسيارة حقيرة أن تطرحه أرضاً .

ولما اعيتنا الحيلة في حمله على التنازل عن تعلم قيادة السيارة أخذنا نذهب بـه الى فرنكلن بارك حيث الشوارع واسعـة وحركة المرور غير نشيطة وعندها نصرف ساعـة أو أكثر لنشرح له الفرق بين ركـوب الفرس وقيادة السيارة . فكان لا يكف عن التمتمة ، ولم يخرج من رأسه قط أنه ما ان يجلس الى مقعد السائق حتى تشرأب أذنا السيارة استعداداً للشموس. وبعد بضعة أسابيع أصبح يستطيع السير بالسيارة نحـو مائة ياردة في خط أشبه بالمستقيم ، ولكنه ظـل كلما وصل الى منعطف جذب قضيب التوجيه بسرعة وقوة فتتجه به السيارة الى شجرة أو حوض للزهور . وكان أحدنا دائماً معه ولم نكن نسمح له بالخروج من المتنزه .

وفي صبيحة ذات يوم استعدت جدتي للذهاب الى السوق وطلبت الى المرأب ارسال السيارة فقيل لها ان جدي قد خرج بها . وهنا حصل هرج ومرج واتصلنا بالعم وليم الذي جـاء بسيارته اللوزيير ومضينا نبحث عن جدي . لم تكن الساعـة

قـــد بلغت السابعة وكانت حركة المرور لحسن الحظ قليلة . وذهبنا الى فرنكلن بارك ظناً منا ان جدي ذهب ليروض السيارة العنيدة . وقال لنـــا بعض المارين انهم رأوا عجوزاً طويلاً ذا لحيـــة بيضاء يسوق سيارة ويلعن . وتبعنـــا أثراً متعرجاً حتى وجدناهما آخر الأمر على شارع نلسون على مسافة أربعة أميال من مدينة شبرد . وكان جدي واقفاً في الطريق ويصرخ ، وكانت العجـلات الاربـع قـــد علقت بسياج من الاسلاك الشائكة . كان هناك عاملان ومزارع يحاولون تخليص السيارة . أما جدي فكان في حالة غضب شديـد ، فصرخ فينا قائلاً : « هذه الـ... تمردت علي » .



وهنا حصل هرج ومرج

والآن لنعد الى مسألة الحرب .

لم تستدع لجنة التجنيد في كولومبس جدي للخدمة ، ومن حسن حظها أنها لم تفعل، لأنها لو استدعته لاضطرت الى قبوله. فقد ترددت حكايات عن بضعة أشخاص في الثمانين أو التسعين استدعوا في اثناء الفوضى، ولكن جدي لم يكن،على كل حال، واحداً منهم . ومرت الأيام وهو ينتظر ، ولكن الدعوة لم تصله . أما أنا فكنت استدعى كل اسبوع تقريباً رغم انني أعفيت من الخدمة العسكرية في أول مرة أحلت فيها على اللجنة الطبية . ولعل المسؤولين لم يقتنعوا قط بأن الذي يستدعى في كل مرة هو أنا ، أو لعله كان هناك خطأ كتابي لم يكلف أحدهم نفسه عناء تصحيحه . وعلى أي حال ، كنت أجد كل يوم اثنين كتاباً يأمرني بمراجعة الطابق الثاني من القاعة التذكارية في الساعة التاسعة من صباح يوم الأربعاء التالي . وقد حاولت في المرة الثانية أن أشرح لأحد الأطباء أنني اعفيت من الخدمة العسكرية ، فنزعت نظارتي وقلت له : « انني لا اراك أكثر من نقطة صغيرة باهتة » ، فرد محتداً « وانا لا اراك شيئاً ابداً » .

وكنت أضطر كل مرة أن أنزع ثيابي كلها وأتسكع في القاعة مع عدد من الحمالين وأبناء أصحاب البنوك والكتبة والشعراء . ثم تفحص منا القلوب والرئات فالأقدام وأخيراً

العيون . كان فحص النظر دائماً آخر الفحوص ، فاذا جاء دوري قال لي الطبيب : « لا يمكنك الالتحاق بالخدمة العسكرية ونظرك على هذه الحال ! » وكان جوابي دائماً « أعلم ذلك! » . وبعد اسبوع او اثنين اتسلم الأمر من جديد ونرجع الى قصة «ابريق الزيت» . وحدث في المرة التاسعة ، أو لعلها العاشرة ، انني تناولت واحدة من السماعات الموضوعة على الطاولة ، ولا أعرف كيف وجدت نفسي في صف الفاحصين بدلاً من ان اكون مع المطلوبين للفحص . حياني أحدهم قائلاً : «مرحباً يا دكتور» ، فأجبته « مرحباً » . وكان ذلك بطبيعة الحال قبل ان انزع ملابسي ، ومن يدري لعل الشيء نفسه كان سيحدث لو انني كنت عارياً ، ولكنني أشك في ذلك . ثم عينت أو دفعت الى قسم الصدر والرئتين وأخذت أفحص واحداً من كل اثنين مختصراً عمل الدكتور ردجواي الى النصف. فقال لي : «يسرني انك هنا ، يا دكتور » .

اعتبرت أغلب الذين فحصتهم لائقين ولكنني كنت بين الحين والآخر أعفي واحداً من باب الاحتياط . وكنت أجعل الواحد يمسك أنفاسه ثم يقول « مي ، مي ، مي ، مي » فلاحظت الدكتور ردجواي ينظر الي باستغراب . ثم وجدت أنه لا

يطلب منهم سوى ان يقولوا « آه » وأحياناً لا يطلب منهم ان يقولوا شيئاً . وذات مرة وجدت رجلاً تبين فيا بعد انه ابتلع ساعة ليقنع الأطباء بأن هناك جزءاً غير سليم في احشائه. (كان ذلك تحايلاً شائعاً فبعضهم كان يبتلع المسامير ودبابيس الشعر والحبر وما شابه ذلك لكي يعفى من الخدمة العسكرية). وبما انني لم أكن أعرف ما الذي ينبغي أن يسمعه المرء بالسماعة فان دقات الساعة لم تكن مفاجأة لي ، ومع ذلك قررت ان استدعي الدكتور ردجواي للتشاور معه في هذه الحالة لأنني لم أسمع دقاً كهذا في الآخرين . قلت له : «هذا الرجل يدق» . فنظر الي نظرة استغراب ولكنه لم يقل شيئاً . ثم نقر على صدر الرجل باصبعه واستمع باذنه وأخيراً استعان بالسماعة ، ثم قال : « سليم مائة في المائة » . قلت : « لكن افحص تحت الصدر قليلاً » ، وأشار الرجل بدوره الى بطنه ، فرشقه ردجواي بنظرة الغاضب المزدري قائلاً : « هذا من شئون قسم البطن » . وبعد بضع دقائق وصل الرجل الى الدكتور بلايث بالومي فوضع السماعة على بطنه ، وبدون ان يطرف له جفن قال للرجل : « لقد ابتلعت ساعة يا صاحبي » . فاحمر وجه الرجل وسأل : «عن قصد ؟» . فأجابه الطبيب «لا اعرف». ومضى .



هذا من شئون قسم البطن

بقيت في خدمة لجنة التجنيد نحو أربعة أشهر . ولم يكن في وسعي أن أغادر المدينة قبل ان ينتهي النفير ، وطالما أنني بقيت في المدينة وكنت أحضر للفحص دون تأخير ، وان كنت انا الفاحص ، فقـــد كنت اشعر انــه لا يمكن اتهامي بالتهرب . كنت اثناء النهار أعمل وكيـــلا للدعاية في مدينة للملاهي مديرها شاب طويل لا يمكـن التنبؤ بتصرفاته اسمــه بايرون لاندس . كان قبل سنوات قد نسف بالديناميت استراحة الرجال في مبنى مجلس الولاية للتسلية فقط ، وكان يلذ له ان يسكب الماء على النائمين ، واوشك مرة ان يقبض عليه لأنــه قفز من سطح بناية عالية ببراشوت من صنع منزلي .

طلب مني ذات صباح ان ارافقـــه في ركوب Scarlet Tornado في دوّارة شديدة الانحدار . لم أكن أريد مرافقته ولكني خشيت ان يتهمني بالخوف فسايرته . كانت الساعـــة حوالي العاشرة ولم يكن في مدينة الملاهي أحد غـير العمال والمشرفين في ثيـــاب العمل . صعدنا في احدى العربات وبينما كنت اتلفت لأرى الشخص الذي سيدير الدوارة شعرت بهـا تدور ، واكتشفت ان لاندس هو الذي يديرها بنفسه . ولكن لم يكن بوسعي ان انزل فقد كنا نصعد الانحدار الأول ونهبطه من الجهة الأخرى بسرعة ثمانـين ميلاً في الساعة . وصرخت

بجاري عندما وصلنـــا الى قوس على شكل زاوية ٦٠ درجة واندفعنا بالفضاء : « لم اكن أعرف انك تستطيع تشغيل هـــذه الدوارة ! » ، فرد : « ولا أنا ! » . وكان انطلاق العربة واندفاع الهواء قد بلغا حداً مخيفاً عندما بلغنا « كهف الظلام » وخرجنا منه الى هوة مونوهان التي سميت بهذا الاسم لأن عاملاً اسمه مونوهان سبق أن اضطر الى القفز عندما رأى أنه سيقع بين عربتين . ومع أن تلك الرحلة انتهت بالسلامة فقد خلفت فيّ أثراً لا يمحى ، ولا ابالغ اذا قلت انها اكسبت حياتي شيئاً من التنويع . فهي السبب في أنني اصرخ في نومي، وانني ارفض ركوب المصعد ، وانـــني لا اتمالك عن سحب الفرامل الاضطرارية في السيارات التي اكون راكباً فيهـــا ، وانني كلما استلقيت احسست بنفسي وكأنني اطير ، وانني لا استطيع في بعض الأشهر استبقاء شيء في معدتي .

أثناء مراجعاتي الأخيرة للجنة التجنيد كنت قد تعبت من دور الفاحص ، وعدت اراجعها باعتباري مطلوباً للتجنيد . لم يعرفني احد من الأطبـــاء الذين كانوا معي حتى ولا الدكتور ردجواي . وعندما فحص صدري آخر مرة سألته ان كان قد عمل معه طبيب آخر . فأجاب بالايجاب . وسألته : « أكان يشبهني ? » فأجاب « لا أظن ، كان اطول منك » . (كنت

وهو يفحصني حافياً) . وأردف : « كان ماهراً في فحص الصدر . هـــل هو من أقربائك ؟ » . قلت : « نعم » . ثم ارسلني الى الدكتور كومبي الاخصائي الذي كان قـــد فحص عيني اثنتي عشرة او خمس عشرة مرة من قبل . كان يعطيني اختباراً بسيطاً في القراءة . قال : « لا يمكنك ان تلحق بالجيش ونظرك هكذا » . قلت : « اعلم ذلك » .

وبعـد الفحص الأخير بأيام قليـلة استيقظت من النوم على اصوات الأجراس والصفارات . ومضى الرنين والصفير يقوى ويشتد . لقد كانت الهدنة .



مَلْحُوظَة في الخَاتِمَة

سأضرب صفحاً عن الأيام العصيبة التي مرت بي في وسط العمر تاركاً أجراس عام ١٩١٨ – بكل وعودها الكاذبة – تدق نهاية فترة معينـــة في حياتي . ان الزمن يخفف في الذي يكتب سيرته حدة ما مر به وسكت عليـه مدة ، فالمرء لا يغطي رأسه بالمخدة عندما يستيقظ في الصباح ويتذكر فجأة شيئاً فظيعاً وقع له قبل خمسة عشر او عشرين عاماً ، أمـــا آلام السنة الفائتة ومزعجاتها فهي اقرب من ان تنسى . وما لم يستطع المرء ان يكف عن التحدث الى نفسه بصوت مسموع ليطرد ذكريات الزلات والعثرات فانه لا يكون مهيئاً للمجهود الشاق الذي يتطلبه تفحص المحنة وترتيب الحوادث لعرض ما جرى بالضبط عرضاً هادئاً متزناً . فالوقت الذي وقعت فيـه

من بيت جيمس ستانلي في غرين ليك ، نيويورك ، مـــا زال قريباً بالنسبة اليّ قرباً لا استطيع ان اذكر فيـه الحادثة وأنا محتفظ بهدوئي رغم أن الحادثة وقعت عام ١٩٢٥ . ويقولون ان في البيت اليوم ممراً تمشي فيه عندما تفتح الباب الذي فتحته يومئذ ولكن لم يكن الباب موجوداً في تلك الأيام .

لقد فكرت وأنا في العقد الرابع ان اقضي بقيـــة ايامي متجولاً في البحار الجنوبية دونما غاية ، كأنني من شخصيات كونراد ، فأقضي الوقت ساكتاً ولا يعرفني احـــد . ولكن اضطراري الى مراجعة طبيبي العيون والأسنان منعني من تنفيذ هذه الفكرة ، اذ ان المرء لا يستطيع ان يرجع من سنغافورة كل بضعة اشهر ليبدل عدستي نظارته ويحتفظ في الوقت نفسه بالتهيؤ النفسي اللازم للتجول . ثم ان نظارتي ولهجتي تفضحانني دائماً حتى عندما اجلس في المقاهي الصغيرة في البلاد الاستوائية وأحرك فكـّي . وقد اكتشفت ذلك عندما جربت التجوال ذات صيف في جزر الهند الغربية . وبدلاً من ان تتبعني همسات الرجال وعيون النساء تبعني بائعو المسابح وبائعـات البطاقات البريدية . ولم تتقدم نحوي فتاة سمراء مثل توندلايو في « شحنــة النساء البيض » * خالعـة عذارها من اجلي . وانما حاولن ان

★ White Cargo

يبيعني السلال .

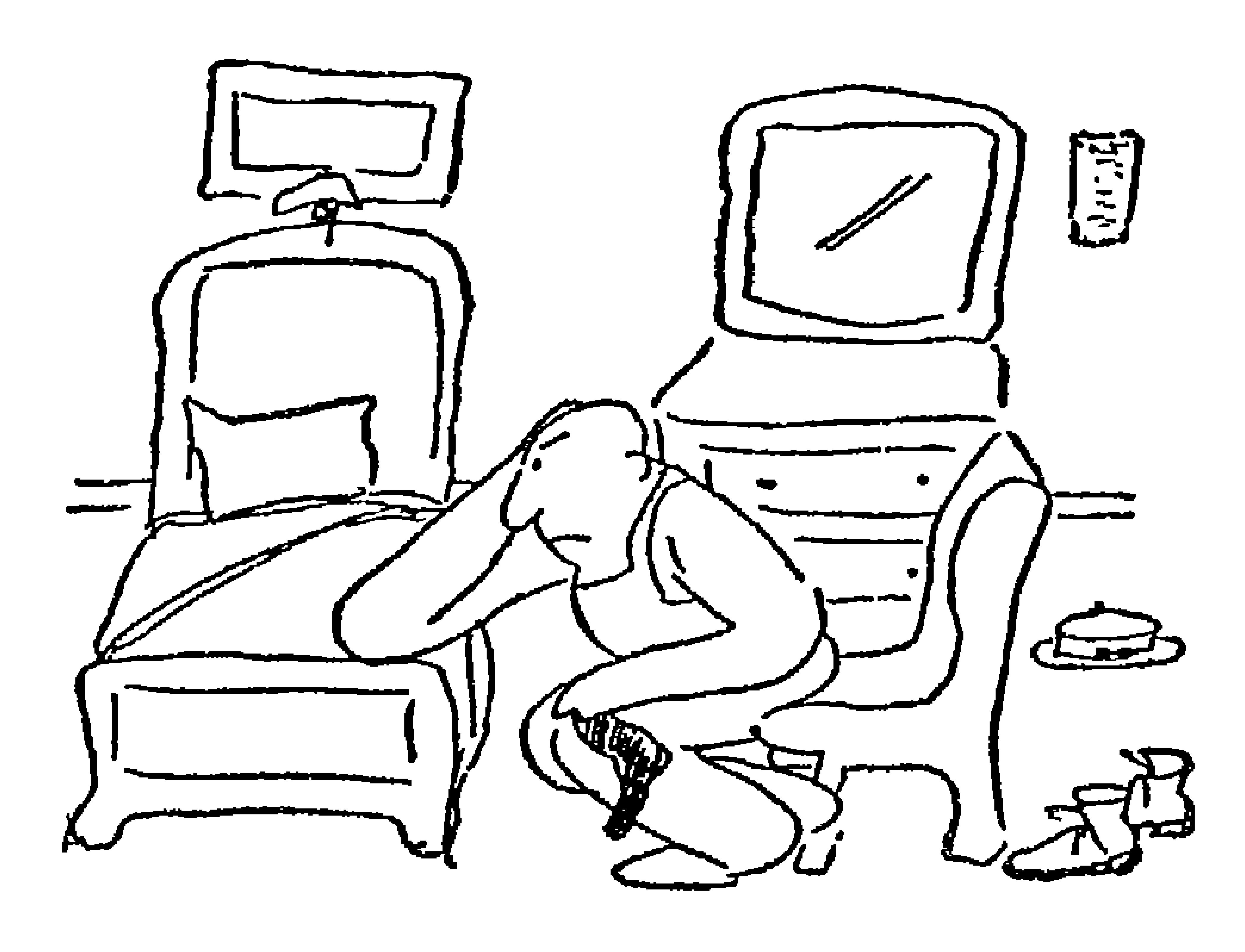
وهكذا فانه من المستحيل ألا أُعرف ، فالسائح الذي لا يعرفه احد يستطيع ان يجلس في اي مطعم في وسط



حاولن ان يبيعني السلال

كولومبس . واستطيع القول انه لم يخرج من كولومبس سائح واحد من الطراز الأول على طريقة شخصيات كونراد . لقد افلح بعضهم في الاختفاء بضعة ايام وسرعان ما كانوا يظهرون في فندق في لويزفيل وهم يعانون من صداع شديد ولا يذكرون كيف وصلوا الى ذلك المكان ، ولكنهم يعودون دائماً الى

زوجاتهم بقصة مختلقـــة عن كيفية فقدانهم الذاكرة او انهم اضطروا الى الذهاب لحضور اجتماع نادي النسور .



غرفة فندق في مدينة لويزفيل

لم يكن هناك مجال للهرب حتى للورد جيم — أحد أبطال كونراد . فقد كانت سحابة اخفاقه تلاحقـــه اينما ذهب مهما تغيرت السفن التي ركبها والقفار التي اقتحمها . وفي الطرقات التي تؤدي من المكتب الى المنزل ومن المنزل الى بيوت الناس المستقرين تكمن أخطار العيش الرتيب الذي قد يخيم عليك في أية لحظة ، ولن تجد مفراً منـه في المنعطف المفاجيء الذي لم

تكن تتوقعه . وعندما كنا في مارتنيك وصفرت الصفـارة للسياح كي يرجعوا الى الباخرة مرت بي لحظة جميـلة عابرة اذ قررت ألا أعود الى الباخرة . ومع ذلك فقد عدت . ووجدت أن أحدهم قد سرق سراويل سترة العشاء .



الفهرس

الرسوم جميعها بريشة المؤلف

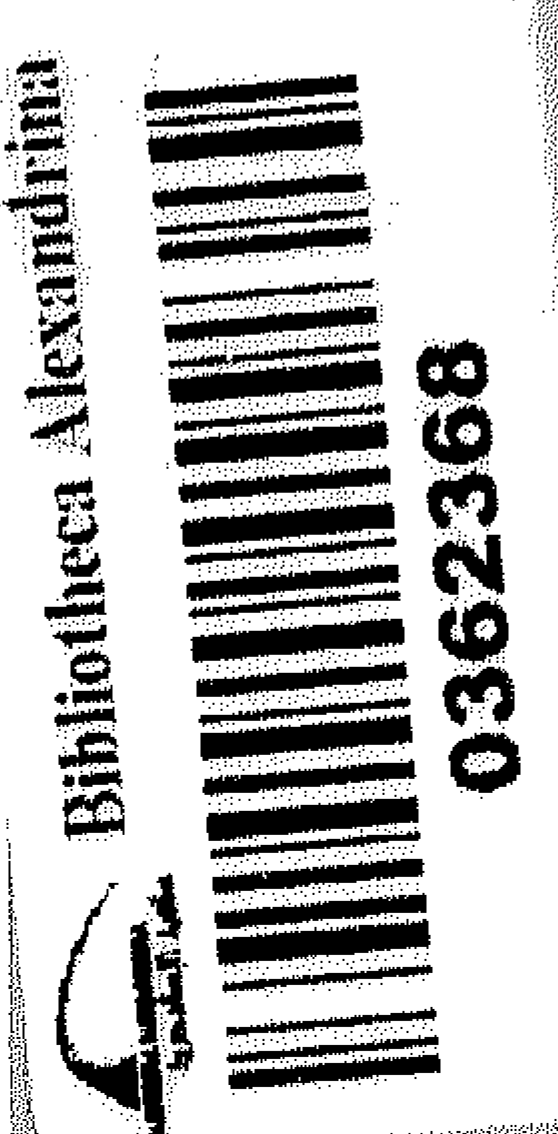
ف . ب . (١٣٣)
١٩٦٥

المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر - بيروت

هذا الكتاب

قال ثيربر مرة : « ان المرح هو فوضى عاطفية يتذكرهـا الانسان في حالة الهدوء » . وهو في هذا يعيد ما قاله وردسورث عن الشعر . اما مدى ما في هذه المجموعة من متعة في الفوضى والهام [illegible] فذلك تنبئك به القطع العشر التي تجدها في هذه المجموعة . [illegible]

كتاب جد [illegible]



الثمن : ٢٠٠ ق. ل